آدم يحيى عبد الرحمن الفلاني

أهل التكرور

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية عابدين القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

أهل التكرور

آدم يحيي عبد الرحمن الفلاني

الطبعة الثانية ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٧ م

مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة

٨٤ صفحة ١٧ × ٢٤ سم

رقم الإيداع : ٢٠١٧/١٦٥٩

الترقيم الدولي : I.S.B.N.

978-977-225-452-1

دار الكتب والوثائق القومية

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الفلانى ، آدم يحيى عبد الرحمن .

أهل التكرور : قصة / آدم يحيى

عبد الرحمن الفلانى .- ط٢ .- القاهرة :

مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع ، ٢٠١٧

٨٤ صفحة ؛ ٢٤ سم

تدمك ١ ٤٥٢ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

(١)

على شاطئ البحر كانت تقع بلاد التكرور ، وكانت أرضها مترامية الأطراف والمساحات ، وكانت خصبة موفورة بالمعادن والثروات ، فيها ما يزيد على حاجات سكانها بكثير ، وكان معظم أهل التكرور يعيشون على الزراعة والحرث ، وبعضهم يرعون الماشية ، وآخرون منهم يضربون في الأرض ، يبغون فضلا من الله في تلك التجارة التي لا تنقضي يوما من الأيام ، وقليل منهم يتعلّم الصناعة إلى درجة تمكنهم من العيش الرغد في حياتهم .

وليس من اليسير على الأجانب إذا وصلوا إلى بلاد التكرور، أن يتصلوا بالتكروريين اتصالا صحيحا وأن يروهم كما هم عليه ، فالتكروريون ـ وإن رأى الأجانب فيهم غير ذلك ـ مغلقون دون الغرباء ، لا يظهرون أنفسهم للغرباء إلا بمقدار ، وهم لا يظهرون من أنفسهم للأجانب إلا ما يريدون إظهاره .

وكان الأجنبي يخطئ حين يتخذ من هذه المعرفة الضئيلة الكاذبة التي حصل عليها في الملاعب والضروب من اللهو والدعابة والمجون تستهوي كثيرا من الأفئدة إلى بلدهم ، فيتخذ هذه المعارف كلها وسيلة إلى الحكم وتقرير النظريات.

على أن هناك وسيلة أخرى للوصول إلى حياتهم الخالصة ، وهي فهم أوضاع بلاد التكرور ، والإمعان في معرفة أساليب أهل التكرور في التصور والحس ، والشعور بوجه عام ، ومعرفة أساليب طبقة منهم خاصة في المعاش والأحوال والسلوك على وجه أعلى وأكمل ، هناك يتجلى للأجانب أن الوصول إلى هذه الحياة التكرورية المقفلة ليس يسيرا لمن يقضي في بلاد التكرور أسابيع أو شهورا يلتمس فيها اللذة والراحة ، وإنما الوصول إلى تلك الحياة المقفلة يكلفنا شيئا من العناء غير قليل ؛ لأن أهل التكرور قصتهم غامضة مبهمة ، وسيرة حياتهم فيها رموز ما يدعو إلى تفكير عميق قبل الوصول إلى حقيقتها !

(٢)

كان الحارث رجلا نحيفا طويلا ، وكان مفرطا في النحافة والطول ، لذلك كانت قامته ترتفع في السماء وتمتدّ في الفضاء ، وكان أسمر اللون ، أسيل الوجه ، تضطرب فيه عينان صغيرتان مائلتان إلى الغور والسواد ، وكان عظيم الرأس ، سائل الأكتاف ، في عنقه استواء معتدل لا يميل إلى القصر ولا إلى الطول ، وكان سبط الكفّ طويل البنان ، يرى من بين أصابعه خلل ونوافذ يمرّ بها النور والهواء عند قبضها وبسطها .

وكان الحارث ثائر الطبع ، أبيّ النفس ، قوي الإيمان تملك قلبه وتسيطر على نفسه نزعة دينية حادة عنيفة ، كان يحسها ويخضع لها ، ويثير في نفسه هموما ثقالا ، وقد تطغى عليه هذه الهموم الثقال أحيانا فتراه يثور ثورة عارمة أمام أولئك الذين اغتصبوا قطعة من أرض أبيه واستولوا عليها أحقابا من السنين .

وأبوه «همام» من بلدة «ميمة» وهي عاصمة بلاد التكرور ، وهي مدينة كبيرة من حيث المعادن والذهب ، وحيث الزراعة والتجارة ، وحيث الأمن والاستقرار ، لما فيها من غزارة الأمطار ، وحيث الوثنية القديمة التي كانت سافرة لا غبار عليها . وأمه «سكينة» من بلدة «نونة» حيث الرعي والكلأ ، وحيث الصناعة اليسيرة التي لا تكلف فيها ، ولا تَصَنُّع ، وحيث نشأت الأديان السماوية فيها زرعت وترعرعت على تربتها واستغلظت واستوت على سوقها ، فصار أهلها متدينين زمنا غير قليل .

وُلد الحارث في بلدة «نونة» ومات عنه أبوه فلم ينقله إلى «ميمة» فنشأ بين أخواله وتأثر بحياتهم وتخلّق بأخلاقهم وسار سيرتهم حتى بلغ الشباب أو كاد ، ثم أقبل عمّه فانتزعه من إقليمه الصعب العسير إلى إقليم آخر سهل هيّن ، تخصب فيه الأرض ، وتبتسم له السماء من حين إلى حين . ولعلّ أخلاق أهل نونة وخصال أهل ميمة قد اختصمت في نفس هذا الغلام الذي يسمونه حارثا ، ولعل اختصامها قد طال أو قد قصر ، لكنها عل كل حال قد انتهت إلى شيء من

الاعتدال في آخر الأمر ، فلم يكتمل الحارث شبابه حتى كـان فتى من فتيان قبيلة ميمية سادت أهل التكرور ردحا من الزمن ، لكن حارثا يمتاز عن بقية فتيان أهل ميمة بخصلتين قـويتين ، لم تعرف بهما قبيلة الميمة من قبل ، وهما الصلابة في الـدين والقوة الخفية التي تدفعه دائما إلى القيام بالواجب ، نعم ذلـك الواجب الذي فرضه عليه أبوه قبل موته ، والذي يرى فيه خير بلاد التكرور ، نعم تلك البلاد التي لا تزال تعيش حتـى اليـوم تحت سيطرة أهل « يلملم » .

(٣)

كانت « يلملم » بلدة كبيرة من بلاد التكرور ، وكـان أهلـها غرباء أجانب ، قد جاءوا من بلدة نائية تقع في ما وراء البحر . وهم رجال طوارق قد ركبوا البحر لـيلا ووصـلوا إلى المكـان الذي وجدوا أنفسهم فيه ، ويسمونه « يلملم » . ولقد دخلوا في أول يوم بلاد التكرور على حين غفلة من أهلها حيـث طرقـوا ليلا أبواب الحصون التي أحاطت البلاد من كـل جانـب ، ولم يسمعوا صوتا ولا همسا ، وفتحوا أبواب الحصون ووجدوا أن الحــراس وكلابهــم نــائمين فهــاجموهم وقتلــوهم ثــم أخــذوا يدخلون كل المدن والقرى ، فوجـدوا أهلـها راقـدين فطفقـوا يوقظونهم بطلقات البنادق وطعنات الرماح ورشقات السـهام ، ولم يلبث أن مات كثير من أهل البلاد ، كذلك سلب الرجـال البـيض الطـوارق سـلطة بـلاد التكـرور مـن أهـل « الميمـة » و « النونة » فأصبحوا منذ ذلك اليوم أسيادا يديرون شئون البلاد كلّها .

وكان الحارث لا يعلم شيئا من أمور هؤلاء الطـوارق ، إلا بعض أخبار طفيفة يسمعها عن طريق أبيه همّام وصاحب أبيه شيبان الراعي ، فكلاهما اللذان وقفا على ما وقع في فترة مـن الزمن! زمن احتلال الطوارق .

ولقد مات أبو الحارث وبقي صاحبه شـيبان الراعـي علـى قيد الحياة ، وكان شيخا كبيرا قد ناهز في عمره سبعين عاما ، وكان رجلا ضخم الجسم ، عريض الصدر ، مفتول العضلات ، وكان يمشي في هدوء دون أن يتوكـأ علـى العصـا ، ودون أن يتخبط في مشيته ، ولقد احتفظ بقوة جسـمه وعقلـه وروحـه ، فظهر رجلا خفي الصوت ، قليل الكلام ، لكنه إذا احتـاج إلى الخطاب فإنه سيل فيّاض،كان خبيرا بكل ما وقع في الماضي، وبصيرا نفّاذا في أمور مستقبلة حيث يتوقع بأمور قبل أوانهـا ، وبحادثة قبل وقوعها ، ولقد صـاحب أبـا الحـارث « همامـا » عندما كان شابا يافعا ، وعندما كان راعيا يجول بماشيته حول بلدة « ميمة » حيث ألقى فيها عصا الرعي ، وحيـث كانـت لـه فتاتان يريد أن يزوّج إحداهما ابـن صـاحبه حارثـا ، ويـزوج الثانية أحد بني أعمامه عن قريـب جـدا . كـذلك كـان الشـيخ شيبان الراعي يقوم بدور صاحبه همام لابنـه الحـارث ويـؤدي

معظم حقوق الأبوّة في الرعاية والعناية والتقدير كلما يحتـاج ابن صاحبه إلى ذلك سبيلا .

أما صناديد أهل يلملم فهم يرون شـيئا آخـر في شخصـية شيبان الراعي ، يرون فيه الفطنة والـذكاء ، ويـرون فيـه الدعـة التي لم تكن مألوفة عندهم ، لذلك كانوا يهابونـه ويرهبونـه ، كما كانوا يجلّونه ويكبّرونه ، وإذا سألتهم عن مصدر ذلـك لم يعرفـوا كيـف يجيبـون ، إنمـا كـان هـذا الرجـل يبهـرهم ويسحرهم ويملأ نفوسهم إكبارا وإعظاما .

ولقد أقبل الحـارث في ذلـك اليـوم علـى مرشـده الراعـي ووليّ أمـره ، يمشـي مشـية فيهـا كـثير مـن الاعتـداد بـالنفس والازدراء لغيره من الناس ، وفيها مع ذلك شـيء مـن الحـزن والأسى ، وكل شيء في هذا الفتـى كـان يصـوّر رجـلا شـديد الطموح ، بعيد الأمـل ، واسـع الرجـاء ، ولكـن الأسـباب قـد تقطعت به ، فهو غير راض عن نفسه ولا عما حوله من الناس ، ولا عما حوله من الأشياء ، يريد أن يذعن لظروف الحياة التي لا يسـتطيع لهـا تغـييرا ، ولا تبـديلا ، ولكـن نفسـه لا تطيـق الإذعان ولا تطمئنّ إليه ، وهو جهاد متصل وصراع مستمرّ .

وكان شيبان الراعي ينظر إليه في ذلك اليوم يتساءل عن مصدر هذا التيه الذي كان يُرَى في مشيته، وتلك أمارات الحزن التي ارتسمت على وجهه، والتي كانت تظهر لتستخفي، وتستخفي لتظهر كأنها وميض البرق في الليلة المظلمة. وكان يظنّ أن مصدر هذا كلّه هو «نويرة» التي هي خطيبته، والتي لا تتخلى عن كبريائها ساعة من ساعات الليل والنهار، ذلك كلما أراد الحارث أن يداعبها مداعبة حلوة لا لغو فيها ولا تأثيما، لكن لم يكد الحارث يلقى مرشده الراعي حتى فاجأه بحديث لا سماحة فيه ولا يسر، فقال متلهفا: وقد انتهى إليّ اليوم أمر «سيرجيس» حاكم بلاد التكرور، وكان يدعوني إلى اجتماع عظيم يضم أخبارا من أهل الميمة والنونة، ويضم أشراف القوم من أهل يلملم، قال الراعي: إياك أن تغترّ بدعوة أولئك الأباليس من القوم، فإني أعلم أنّهم سيعرضون عليكم المفاوضة حول أمور السلطة في هذه البلاد، مع أنهم لن ينتهوا أبدا إلى أمر حاسم، أو لم تعلم أن أولئك الأبالسة من أهل يلملم رجال طماعون لن يتنازلوا عن العرش لأهله، ولن يفيقوا أبدا من سكرات السلطة التي سحرت أعينهم منذ زمن طويل.

قال الحارث : إنـي قـد ضقت بحياتهم هـذه البغيضـة الـتي لا أمن فيها ولا استقرار ، ومـع ذلـك فهـم يريـدون أن يبقـى الحال على ما هو عليه ، لأنهم في عزّة وترف ومال ، وغيرهم في ذلة وعبودية وشقاق ، قال الراعي : نعم ، كذلك كان الأمر يا بنيّ ، ولقد ضاق أبوك بهذا الحال من قبل ، ولم يستطع أن يغيّر قليلا منه ولا كثيرا ، وأنت أيضا قد بدأت تضيق بالحـال الراهن ، وما أحسب أنك تستطيع أن تغيّر قيد شبر مما ضقت بـه ذرعـا ، فأهـل التكـرور قـد أصـبحت أمـورهم كـالقوارب ترقص على أمواج البحر لا تـدري أيـن تـأتي وأيـن تمضـي وتتجه ، وكانـت العاصـفة لا تـزال تتصـرف بهـا كمـا تشـاء ، وتعبث بها عبثا ، وقـد تغـرق القـوارب وهـي لا تبـالي! قـال الحارث : فما رأيك إذن في حضوري ذلك الاجتماع الغاشـم المزعوم؟ قال الراعي : يجب عليك أن تكون على حذر ، فإن الحذر أيسر ما يجب علينا ، والاحتياط أولى ما يجمل بنا في هذه الأيام! قال الحارث في شـيء مـن الشـدة والعنـف ، لقـد حـدّثني أبـي قبـل موتـه أن أرض التكـرور هـي أرض آبائـه وأجداده ، وأن أولئك الأباليس من الطوارق قوم غرباء أجانب ،

وقد يطيل بهم المكث هنا فيتوهم كثير من الناس أنهم من أهالي بلاد التكرور .

قال الراعي وهو يضربه ضربا خفيفا على إحدى كتفيه بيده اليمنى : على رسلك يا بني ، هدئ من هذه الحدة ، واخفض من هذا الصوت ، واعلم أن حديث أبيك فيه بعض الصدق وإن لم يكن صدقا كلّه ، وقد يقول أبوك : إن أرض التكرور أرض آبائه وأجداده، لكن في هذا اليوم قد أورثها الله لعباده الطاغين، وقد يورثها غدا لعباده الصالحين ، وتلك الأيام نداولها بين الناس! قال الحارث : وماذا يجب عليّ أن أصنع حتى تعود الأرض إلى أهلها وتعود البلاد إلى أصحابها؟ قال الراعي : قم بالمبادرة أولا لكثير من الناس ، واجعلهم يفهمون أوضاع بلاد التكرور ، وخذ بالأسباب والأوقات في تفتح أعينهم وتثقيف عقولهم، ثم استعن بتلك القوة الخفية التي تحدّثني عنها دائما ، والتي قلت إنها قوة غامضة مبهمة تحسّها ولا تتبيّن حقيقتها ، وتخضع لها وتنكمش عنها أحيانا ، ومع ذلك كانت تعود إليك ، وتلحّ عليك إلحاحا في إصدار الأمر ، فيملأ هذا الأمر قلبك نائما أو يقظانا ، ويلمّ بك طيفه فيكثر الإلمام فيقول لك

في صوت غريب مدهش : اصدع بما تؤمر ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته! فما هذا كلّه ـ يا بنيّ ـ إن كنت صادقا فيما تحدّثني به منذ أيام إلا دليل على أن لك رسالة يجب أن تؤديها لأهل التكرور عاجلا أو آجلا .

قال الحارث : إذن فهل أشاركهم في ذلك الاجتماع كما يحبّون ، أم أعتذر إليهم وأنصرف إلى ما يهمّني في بداية الأمر؟

قال الراعي : اذهب إليهم وشاركهم في الاجتماع ، واجعلهم يقفون على حقيقة الأمر ، وأشر إلى ما يكون فيه مصالح البلاد ، واجعلهم يفهمون في نهاية الأمر أنك لا تريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقك إلا بالله!

هكذا نهض الحارث فجأة من مجلسه ، وقال بصوته القويّ العريض : لأعملنّ بهذا الرأي ، ولأثبتنّ لهم ما يجب عليهم فعله شاءوا أم أبوا .

(٤)

لم يكد الحارث يخرج من دار شيبان الراعي حتى أخذت إحدى ابنتيه تسعى إليه سعيا من حجرة من الحجرات التي تجاور دهليزا كبيرا يستقبل فيه الراعي ضيوفه ، ولم تكد عيناها تستقران على والدها الراعي حتى تقول : ما بك يا أبتي توقد نار الفتنة في قلب خطيبي كل يوم ، ألم تعلم أن الفتنة أشدّ من القتل؟ قال الراعي : نعم ، الأمر كما تقولين يا نويرة ، لكن الظلم أشد من كليهما معا ؛ لأن الفتنة أو القتل هي نتيجة عمل من أعمال الظالم ، وأثر من آثاره السيّئة ، أما الظلم فهو الأصل الذي يمدّ الفرع ، وهو الذي وجب علينا أن نتعاون معا ونقضي عليه قضاء مبرما ، يا نويرة إننا إذا لم نستطع أن نكافح الظلم في هذه البلاد ، ولم نستطع أن نتغلب على الظالمين فإن العاقبة تكون وخيمة لا محالة .

قالت نويرة في صوت رقيق لا يخلو من ابتسامة ساخرة :

هوّن عليك يا أبتي فإن أمور هذا البلد قد تعقدت إلى درجة لا يمكن تجرده من هذه التعقيدات في سهولة ويسر . وأنت تعلم يا أبي أن حكام هذه البلاد قد قطعوا شوطا كبيرا في نواحي الظلم ، واجتهدوا في السير وبلغوا غاية لا يمكن لأمثالكم من شيوخ القوم أن تمنعوهم ، أو يتغلبوا عليهم ، اللهم إلا إذا كنتم تريدون أن تهلكوا أنفسكم بأيديكم من حيث لا تشعرون . قال الشيخ الراعي : ماذا يعنيك في هذا الأمر حتى تتورطين في حديث لا يَمُسُّك عن قرب أو بعد؟ قالت نويرة : كيف لا يمسني هذا الحدث الجسيم ، الحدث الذي يمسّ أختي وخطيبي! قال الراعي في شيء من الحدة والاشمئزاز : ماذا تقولين يا بنتي؟ وماذا تقصدين في حديثك؟ ولقد فهمت كيف كان هذا الأمر يمسّ خطيبك الحارث ، فما بال أختك ثويبة؟ وما الذي يعنيها في هذا الأمر كلّه؟ قال نويرة : ذلك مالا أستطيع أن أفسره لك الآن ، وكل ما في الأمر يا أبي هو أن تصبر قليلا حتى تعود أختي ثويبة وتسألها عن مصيرها في الخارج وتبحث عن رجل تحبّه في قلبها وتريد أن تتخذه زوجا عن قريب ، هنالك تعلم أنك بقرة تنظر إلى سنام غيرها .

هكذا ساد الصمت والسكون بين نويرة وأبيها الراعي ، وقد أخذهما شيء من الوجوم ، وكأن نويرة قد ردّت إلى أبيها شيئا غاب عنه ، أو نبّهته إلى شيء لم يتفطن إليه من قبل ، ولم يبق سوى أن تعود الفتاة إلى حجرتها ، ويبقى الشيخ في جلوسه صامتا واجما يفكر فيما سمع من حديث ، ويتصبب عرقا من أثر ما أصابه من دوار ، كذلك استلقى الشيخ على ظهره في أريكة طالما يأخذ عليها الراحة والسكون ، واستغرق في غفوة عميقة تشوبها هموم ثقال ، ولم ينتبه من نومه إلا على صوت رجل من الخارج يستأذنه على الدخول ، فأذن له فإذا هو موسى الذي كان أحد أقاربه ، وكان يحدّثه عن شيء غريب ؛ يحدّثه عما رأى وسمع عن ابنته ثويبة ، ويحدثه بنوع خاص عن حبيب ثويبة الذي كان حارس حاكم البلاد ، قال موسى : يا عم شيبان! هل رأيت ابنتك ثويبة في هذا الصباح؟ قال الراعي : نعم ، رأيتها! قال موسى : فأين ذكرت لك أنها تذهب عندما تخرج؟ قال الراعي : ذكرت لي أن إحدى صديقاتها مرضت وهي تريد أن تزورها مع غيرها من الفتيات ، قال موسى وقد ظهر على وجهه أسف شديد : هي كاذبة! والله هي كاذبة ، وقد رحلت مع حبيبها إسماعيل

الذي كان أحد حرّاس حاكم البلاد ، قال الراعي وهو يصيح صيحة عالية : قاتل الله ذلك الرجل إسماعيل ، فمن هو؟ ومن أين أتى؟ حتى اختطف ابنتي ورحل بها إلى بلد آخر بدون إذن ولا نكاح ، قال موسى : أنا شخصيا لا أعرف إسماعيل ، ولا ألتقي به وجها بوجه ، وإنما أخبرني عنه أحد معارفي الذي كان قريبا منه لحما ودما ، وكانت أسرة إسماعيل هي التي بعثت إليّ ذلك الرجل القريب ، وكان يتطلب مني التوسط في الأمر ، ويريد مني الإصلاح في أقرب وقت ممكن ، قال الراعي في غيظ وتذمّر : أي شيء من الإصلاح يريدون في هذا الأمر؟ ولقد فعل ابنهم بابنتي ما فعل ، وهم لا يستطيعون ردعه عن ذلك ، ولا يستطيعون أن يأخذوا فوق يديه حين يفعل ، ولو أنهم يريدن الإصلاح حقا ، فمن حقهم أن يأمروه بردّ ابنتي إليّ قبل كل شيء ، ثم يتوسّلون بك إليّ أو بغيرك من أهل الحيّ والأقارب ، أما الآن فهم يريدون منّي السكوت على كره ومضض بعد ما وضعوا الجمرة في عيني .

قال موسى وهو يهوّن عليه الأمر : الأمر ليس كما تظنّه يا أخي ، فإن إسماعيل رجل طيّب ـ كما يقولون ـ لن يظلم ثويبة ولن يضيعها ، فإن الذي ساقه إلى هذا الاختطاف ـ كما

يقولون ـ هو الخوف منك والقلق على أنك قد ترفض زواج ابنتك منه إذا طلبت أسرته منك يدها ، ولو تفرس فيك الرضا والقبول لما قام بالاختطاف أبدا .

قال الراعي وهو يهزّ رأسه متأسفا : أنت الذي تقول هذا يا موسى! أكان من الخير أن نزوّج ابنتنا الذين يظلموننا في هذه البلاد؟ قال موسى في صوت مضطرب هادئ : كلا يا أخي! وليس إسماعيل هو الذي يظلمنا ، وإنما يعمل تحت الحكام الظالمين ، قال الراعي : ماذا تريد مني أن أفهم من حديثك هذا؟ قال موسى : أريد منك أن تعتبرني مصلحا يراعي مصلحة الفريقين ، لا يميل إلى هؤلاء ولا إلى أولئك ، وإن الذي يهمّه في الأمر هو مراعاة العدل وإصلاح الأمور . قال الراعي : فماذا يكون عدلا في هذا الأمر بعد ما رحل إسماعيل بابنتي إلى بلد غريب؟ قال موسى : العدل في هذا الأمر هو أن تفسح المجال للمفاوضة بين أسرتنا وأسرتهم ، ثم ننظر كيف يتمّ الزواج بين إسماعيل وثويبة في أسرع وقت ممكن ، أما إذا رفضت هذا الزواج فإن الأمر قد ينتهي إلى عاقبة وخيمة ؛ إذ ليس منّا من يستطيع أن يصل إلى حيث

يسكنـان فـي بلـد غريب ، ويفـرّق بينهـما بسهـولـة ويسـر ، أو بعنف شديد .

هكذا ساد الصمت والسكون بين الرجلين المتحاورين منـذ دقائق وثوان ، أما موسى فقد قام علـى سـاقيه وانطلـق ماشـيا نحو الباب وكأنه جبـل ينحـدر في مشـيته ، أمـا الراعـي فقـد أطرق مليّا على أريكته كأن شيئا يغشاه ، وكانت عيناه تذرفان دموعا غزارا .

(٥)

أقبل الحارث يسعى إلى دار الراعي وفي نفسه أن يقصّ عليه حديث ذلك الاجتماع الذي شاوره عليه ، والتمس عنده رأيا يوصي به القوم إذا طلبوا منه فصل الخطاب ، لكنه لم يكد يبلغ دهليز الراعي حتى لاحظ أن وجوه أهل الحيّ لم تهشّ له ، وأن أصواتهم لم ترتفع بالسلام عليه ، وإنما ردّ بعضهم عليه تحية فاترة ، ومضى بعضهم في تهامسهم كأنهم في شغل طارئ لا يريدون إشاعة أخباره ، فلما رأى الحارث منهم الفتور والإعراض أمسك لسانه في فمه وجلس صامتا لا يقول شيئا ، وكانت خطيبته نويرة قد عوّدته ألا تراه في دار أبيها إلا داعبته وأثارت نشاطه للحديث ، ولكنها تلقته في هذا الضحى فاترة عنه تكاد تنكره ، لا تسأله حديثا ولا تسوق إليه حديثا ، وإنما رأى الحارث خطيبته عابسة واجمة تفيض عيناها وابلاً من الدموع ، كذلك أقام الحارث صامتا مذهلا

يدير في نفسه ألف سؤال حول هذا الإعراض والفتـور ، علـى أنه لم ينتظر طويلا قبل أن يساق إليه الحديث ، فهـذا موسـى أخو شيبان يسأله فجأة : ما أخّرك اليوم عنّا يـا حـارث؟ قـال الحارث هامسـا : مـا أردت التـأخر يـا سـيدي ولكـن أخـاك الراعي هو الذي أخّرني إلى هذا الوقت ، وهو الذي بعث إليّ رسولا في ليلة أمس على أن أراه اليوم في وقت الضحى ، قال موسى وهو يحوقل في نفسه ويكبّر الله جهـرا : الله أكـبر ! الله أكبر ! كـأن أخـي قـد توقـع في نفسـه هـذا الفـراق في وقـت الضـحى ، قـال الحـارث ومـا ذاك؟ قـال موسـى : قـد تـوفّي صاحب أبيك! هنالك ضرب الحـارث جبهتـه بيـده صـائحا : واأبتاه! إنـا لله وإنـا إليـه راجعـون! ولم يكـد ينتهـي مـن هـذا الصياح حتى بدا للناس أنه لم يستطع أن يتمالك نفسه ، فهوى على الأرض صريعا ، فحمله بعض الناس إلى زاوية من زوايـا البيت ، فظهر النعش علـى أكتـاف الرجـال ، وانطلقـوا بـه إلى المقبرة مهلّلين ومكبّرين . ولم يقبل النهار من ذلك اليوم حتى ركب شيبان الراعي قافلة الأموات إلى بيتـه الأخـير في صـمت عميق وحزن دفين .

(٦)

واجتمع القوم من أهل الحيّ والأقارب في المسجد حين ارتفع الضحى من الغد ، فلم يتحدثوا في تجارة ولا بيع ، وإنما تحدثوا في هذا الحدث العظيم الذي سبب موت شيبان الراعي ، وتحدثوا بكثير عن ذلك الفتى إسماعيل الذي ابتكر شيئا جديدا في هذا البلد الآمن الذي ليس لأهله عهد بمثله من قبل ؛ وهو الاختطاف . وكان هؤلاء القوم يتعجبون من أمر هذا الفتى ، ويتساءل بعضهم بعضا ، كيف كان يتبع هواه؟ وكيف كان يستخفه الغرور ، وكيف كانت نفسه تطاوعه حتى ارتكب ذنبا عظيما مثل هذا؟ وكان هؤلاء القوم يخشون مغبّة هذا الحدث ، إذا لم يجدوا منه مخرجا . وكيف إذا تسامع أهل بلد آخر بأن فتيانهم قد أصبحوا لا يحفلون بالملإ ، ولا بذوي الأحلام والرأي من قومهم ، وإنما يركبون رءوسهم ، ويستجيبون لشهواتهم ويتبعون أهواءهم ، ولا يحفظون للجار

عهدا ولا يرعون للاجئ حرمة ، وكيف إذا تسامع أهل بلد آخر بأن هذه المدينة قد أصبحت لا أمن فيها ولا عافية ، وإنما تصطاد في أرجائها الفتيات كما تصطاد السمكة . فليكن هذا الحدث بداية ونهاية! فليقم أولو الرأي منّا إلى دار أبي إسماعيل ونطلب منه أن يأمر ابنه بردّ ابنة الراعي إلينا فورا! وإلا سيرى في هذه الأيام ما لا عين رأت إن شاء الله تعالى .

وسمع القوم هذا كلّه! وكأن كلمات أولي الرأي منهم كانت تنفذ إلى قلوبهم دون أن تمرّ بآذانهم ، فنهضوا جميعا من مجلسهم ، واختاروا من بينهم خمسة رجال يكونون نوّابا إلى دار أبي إسماعيل . فمن هؤلاء النواب الخمسة كان حارث وموسى!

على هذا النحو افترق القوم ونوّابهم إلى الغد الذي كان موعد لقاء في دار أبي إسماعيل ، ولم يكد يفترق أولئك القوم حتى أخذ موسى بيد الحارث ورجع أدراجه خطوات ، فلما بلغا المسجد قال للحارث : ما أحبّ أن نرجئ إلى غد ما نستطيع أن نأتيه اليوم! قال الحارث متضاحكا : فلماذا

لا تشهد قومك على ما تأتيه اليوم قبل أن يفترقوا!؟ قال موسى : فإني لا أحبّ أن أفسد هذا الأمر ، ولا أحب أن أقطع ذنب الأفعى دون رأسها فتنطلق قاتلة تنفث سمّها حين شاءت وحيث أصابت ، وهمّ الحارث أن يتكلم فقاطعه موسى قائلا : أنا لا أقول إن إسماعيل لم يقترف ذنبا عظيما كما يقولون ، وإنما أقول: إن هذا الاختطاف لم يكن صنيع إسماعيل وحده، وإنما كانت وراءه أياد أخرى تؤيّده وتعزّره ، وخاصة أيادي رجال السلطة من أهل يلملم . قال الحارث : وإذا كان الأمر كما تظنّه يا عم ، فلماذا لا نقطع دابر أهل يلملم بتحريق دار أبي إسماعيل ووضع أهله من رجال ونساء في القيود والحديد ، وإذاقتهم ألوانا من العذاب ، وأنا أعلم أن إسماعيل إذا بلغه هذا النبأ المؤلم الفظيع سيعود إلى البلد فورا ، وسيرى عاقبة من ظلم قومه من أجل المال والمنصب .

قال موسى وقد صعد الدم إلى وجهه ، وجعلت عيناه تقدحان شررا : هيهات! لا والله ، لا تصلون إلى هذه الدرجة من الجرائم وانتهاك الحرمات ، ورجال السلطة من أهل يلملم ينظرون إليكم مكتوفي الأيدي ، وإني لأعلم أنكم إذا اعتديتم على دار أبي إسماعيل إلى تلك الدرجة التي تصفها لي الآن

فــإن رجــال الســلطة ســيقعون بكــم في حبائــل الشــرّ ، وسيسوقونكم إلى السجن بتهمة تهديد أمن البلاد ، وسيدبرون لكم هناك طريق الموت كما دبروها للراعي المرحـوم . قـال الحارث وقد أخذه العجب من مجامع قلبه : كيف كانت لأهل يلملم يد آثمة غريبة في موت أخيك الراعي؟

قال موسى وهو يتلعثم : أما تعلم أن إسماعيل هو خادمهم ورسولهم ، وأنه لم يستطع أن يمسّ بيت الراعي بسوء دون أن يعلم ساداته ، ودون أن يمدّوه بمال أو بشيء آخر يمكّنـه مـن هذه الإساءة البالغة ، ولقد علم رجال السلطة أن شيبان الراعي رجل يعرض الشعب سرّا وجهرا لمقاومتهم والخروج عليهم ، وكـان أهـل السـلطة يكرهـون هـذا كلّـه ، ويكرهـون كـذلك مقاومة الراعي على ملإ من الناس كي لا يؤدي ذلك إلى إثارة الضجيج في المجتمع ، ثـم اسـتنكروا مسـاومته سـرّا لمـا في شخصية الراعي من عناد وتمرّد ، ولم يبق سوى أن يدبّروا لـه المكيـدة ، حيث لا يـرى شيـبان الـراعـي فيها جيشـا محاربـا ولا عدوّا مناوئا ، وإنما يلتقي بإسماعيل الصنهاجي حارسهم وأمينهم يغوي ابنته ثويبة بمال ولذة ومتاع دون أن يعلـم مـن الأمر شيئا ، وينتهي هذا الإغواء إلى اختطاف ابنتـه إلى خـارج

البلاد . يا حارث اسمعني ، فإن هـذا الاختطـاف لم يكـن فيـه إجبار ولا قسر ولا ما أشبه ذلـك فيمـا ألفنـاه مـن تصـرفات المختطفين ، وإنما كان اختطافـا يتفـق عليـه الـذكر والأنثـى ، ويقتنع كل منهما على سفر قاصد ، ويرى كل منهما في هـذا السفر لذة وبهجة ومتاعا ، وكـان هـذا السـفر لا يـزال تسـلية للنفوس وتسرية للهموم وتأديبا لأمثالكم من الفتنـة المتمـردة الغليظة التي تقاوم سلطة البلاد بلا عدّة ولا سلاح .

هنا تفجّر الحارث كأنه قنبلة صاروخ : كفاك يا عم موسى! ما رأيت كاليوم رجلا قاسي القلب غليظ الطبع فاسد الضـمير كما أراك! يا للعجب فإني أسمع منك حـديثا لم أسمـع مثلـه منذ أويت إلى داركم هذه! وكأنك لم تكن مع أخيـك الراعـي في كـل حركاتـه الإصـلاحية ، وكأنـك تتهـادن مـع الحكـام الظالمين ، قال موسى وقد اندفع في ضحك يصوّر الغيظ أكثر مما يصوّر الرضـا : حسـبك يـا حـارث! وكأنـك لا تريـد أن تتزوّج بنويرة بعد حين ، ولك أن تصـنع مـا تشـاء بعـد هـذا اللقاء ، وستعلم عن قريب أن زواجك من نـويرة يتعلـق بهـذه الأوضاع الراهنة ، لذلك أدعوك إلى خطة سواء بيني وبينـك ، تـريحني ممـا تـريح منـه نفسـك وزوجـك ، وتتجنـب مـن

العاديات ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، قال الحارث : فهو الاستسلام إذن! قال موسى : نعم! إن طابت به نفسك ، قال الحارث : لن تطيب به نفسي ، ولن تطمئنّ إليه قلبي ما دمت حيّا . قال موسى وهو يبتسم ابتسامة ساخرة : إذن فكّر في عواقب الأمور قبل الغد ، وإني لأرى فيك فطنة وذكاء ، وإذا وجدت فيما أذهب إليه من رأي فليكن اللقاء بيننا قبل الغد كما يكون بين أولي الرأي والأحلام .

(٧)

كانت نويرة هي التي مسّت الحـارث علـى إحـدى كتفيـه ، وهي التي نبهته على جموده قائمـا ، ولقـد تركـه موسـى دون وداع ، ودون أن ينتظر منه كلمة على ما أشـار إليـه في نهايـة حديثه ، وقد ظلّ الحارث داهشا مذهلا ، لا يدري ماذا يحدّث به نويرة عن أمـر موسـى ، ومـا جـرى بينهمـا مـن حـديث ، وكانت نويرة تنظر إلى عينيـه الغـائرتين اللـتين تضـطربان في مكانهما وتقدحان شررا ، وكأن الحارث أراد أن يتكلم ، وكأن نويرة أرادت أن تسمع منه شيئا ، لكن لا يدري الحـارث مـن أين يبدأ لها حديثه ، ففاتحته نويرة بقولها : ما بك يا حارث؟ ولماذا بدت على وجهك حيرة وذهول؟ قال الحارث مهمهما : ذلك العم موسى! وهو الذي أراد أن ينقلب رأس الأمور عقبا ، قالت نويرة : وكيف لا تصانعه في هـذا الأمـر وتداريـه حتـى يأتي الله بأمره؟

قال الحارث : وكأنك تسمعين ما يجـري بـيني وبينـه مـن حديث؟ قالت نويرة : نعم! أسمع كليكما ، وأنا أعلم أن العـم موسى رجل مكّار وداهية لن تلين قناته ، ولن تجد من مكـره وكيده مخرجا ، ولقد آلت إليه أمور هـذه الأسـرة الآن ، فمـن اللباقة أن تكون به مترفقا ، وبمجاملتـه متصـنعا ، وأنـا أعلـم أنك إذا جاملته وبهرته بهذه المجاملة فإنه لن يلقاك بمـا لديـه من كيد ومكر أو بغض وعداء .

قال الحارث متسائلا : وماذا جعـل العـم موسـى يتصـرف على هذا النحو من الخبث والخبائث؟ قالـت نـويرة في شـيء من الحزن والأسى : نعم ، ذلك لأجل المال ، فـإن المـال هـو الذي يجعل العبد حرّا ويجعل الحرّ كلبا أو ثعلبـا يعيـث في الأرض فسادا ، أما تعلم أن العم موسى يحب المال حبا جما ، ويحب أن يرى نفسه في هذا البلد أكثـر النـاس مـالا وثـراء ، لذلك كان يستجيب لكل ناعق وناهق في أمور المال ويستدرّه من كل حلّ وحرام .

قال الحارث : فمن هو ناعق وناهق في هذا الأمركلّه؟ قالت نويرة : الناعق في هذا الأمر كله هو أبو إسماعيل الصنهاجي ، أما الناهق فهو ابنـه إسماعيـل الـذي أصبح زوج ثويبـة! قـال

الحارث وهو يتكلّف الهدوء والسكينة : وماذا تريدين مني أن أفهم في هذه الحادثة كلها؟ لأنني أرى كل ما تحدثينني به اليوم لا يزال غامضا مبهما .

قالت نويرة : أود منك أن تفهم أن هناك علاقة متينة بين العم موسى وأبي إسماعيل الصنهاجي ، وكان العم موسى طفيليا يأكل ما طاب له وما خبث من سقطات مائدة أبي إسماعيل ، ويرتوي كذلك من كؤوس مشاربه حينا بعد حين ، ثم يتقرب إلى ابنه إسماعيل الحارس ويسعى إليه سعيا ، ويمعن فيه إمعانا ، ولم يلبث أن كان يتوسل به إلى رجال السلطة ، ويتملق بهم ويتطفل عليهم ، ويأخذ ما طاب له وما خبث من الهدايا والمقاولات! هنالك أصبح لرجال السلطة أمينا في السرّ لا يجهر بتلك العلاقة لأحد ، ولا يلتفت إليها أحد ، أما أنا وأختي ثويبة فنحن نعلم بتلك العلاقة ، لكن ليس عندما بدأت ونشأت ، بل علمنا بتلك العلاقة عند ما اشتدت وقويت ، وعندما أصبح إسماعيل الصنهاجي يأتي إلى دار العم موسى ليلا ، فتجري بينهما المكالمة وينصرف إلى أهله دون أن يشعر أهلنا وأقاربنا ، فمن ثنايا تلك الزيارات الليلية التقى إسماعيل الصنهاجي بأختي ثويبة ،

فعشقها وهمّ بها ، لكن أختي لم تكن مذعنة ولا منقادة في بداية الأمر ، وإنما هي تتكبّر وتحتفظ بمكانتها منه ، وكان الفتى إسماعيل بدأ يخلص لها الحب ويؤثرها بالودّ ويقدّم لها من آيات الإكبار والإجلال ما استطاع من ذلك تبجيلا ، وتمضي أيام وأسابيع والفتى إسماعيل ماض في حبّه الخالص وبرّه الصادق ، وأختي ثويبة ماضية في هذا التيه والتكبر إلى أن تدخل في الأمر العم موسى! فأخذ يغريها بالسفر إلى ما وراء البحر ، وأخذ يقص لها ما هنالك من متعة ولذة لا تفنى! كذلك ألغت أختي ما بينها وبينه من التيه والكبرياء ، وألغت ما فيها من الآماد والمسافات ، فأصبحت عاشقة وامقة تستجيب لكل ما صدر من الفتى من حبّ وإخلاص ، وما صدر منه من نفقة وخير وصلاح ، ولم يلبث أن طغى بينهما الحبّ وبلغ بهما سير الحب أقصاه ، فكان الأمر بينهما كما يكون بين الأزواج ، فأصبحت ثويبة حاملا لم تتجاوز مدة الحمل شهرين ، فأنبأت عمّها ما حدث من أمرها فارتجف العم في أول الأمر ثم ثاب إلى رشده بعد حين ، فصعد إلى ساداته وقص لهم ما حدث ، هنالك ظهر له أن حبّ إسماعيل لأختي ثويبة لم يكن حبّا طبيعيا ، ولم يكن صافيا ونقيا ،

وإنما هو حبّ مصطنع محكم ومنظّم يدبّره أهل السلطة من ورائهما كي يوقعوا أبي في هوة هالكة ، فتمّ لهم ما أرادوا في نهار أمس ، ولما وصلت نويرة بحديثها إلى هذا الصدد ، انهالت دموع غزار من عينيها ، وهي دموع الحزن ، فاقترب منها الحارث وضمّها إلى صدره ، وقال : لا تحزني يا نويرة فإن أباك الراعي مؤمن بالله وأنه لا يخزيه أبدا ، أما أنت فلماذا لا تقولين شيئا لأبيك عند ما بدأت تلك العلاقة الآثمة؟ قالت نويرة وهي تتنهد ثاكلة :

أنا لا أحبّ أن أفسد الأمر بين أبي وأخيه موسى ، وأنت تعلم أن أبي شديد الغضب وسريع الانفعال والنفور ، لن يسمح لأخيه أن يفلت من بطشه وعقابه إذا وقف على حقيقة الأمر ، وقد يؤدي ذلك بينهما إلى ما لا يحمد عقباه . قال الحارث : قد تبيّن لي الآن أن العم موسى شديد المكر وكبير الدهاء ، وهو يريد أن يستر عيوبه عن أعين الناس ، وهو يريد أن يفهموا أنه بريء لا يعلم من هذا الأمر شيئا ، وأنه لا يكون على موت أخيه إلا رجلا مظلوما مخذولا ، قالت نويرة : الآن قد وضح الطريق وفهمت ما يجب عليك فهمه ، ولم يبق إلا التثبت في المشي والمضي في الأمور برفق وأناة .

(٨)

كان اليوم التالي مساء ، وكـان موسـى قـد عـاد مـن صـلاة المغرب ، وكان ينتظر عشاءه علـى مائـدة الطعـام ، فـإذا هـو طارق يطرق الباب ، وإذا هو الحارث ، ولم يكد يراه موسـى حتى نهض من مجلسه ، ولقيه لقاء حارا ، وهشّ له بتحية فيها إجلال وإكبار ، وأمسك يده بيده اليمنى ، ومشى بـه خطـوات نحو يمين الغرفة ، وأجلسه في بهو من أبهاء الاستقبال ، حيث لا يراهما أحد ، ولا يسمع صوتهما أحـد ، ولكـن لا يكـادان يستقران في مجلسهما حتى تبلغهما أصـوات أخـرى تأتيهمـا من بعيد ، وهي تدنو منهما ويحسان دنوها من الباب ، فنهض موسى ومشى إلى غرفة الاستقبال ، وإذا الباب يدق دقا خفيفا ، وإذا الأصوات تستأذن للدخول ، فأذن موسى ، وإذا هم ثلاثـة رجال من النواب الخمسة الذين اختارهم أهـل الحـيّ لمقابلـة أبي إسماعيل ، فتلقاهم موسى ببهجة كبيرة ، وحفاوة بالغـة ،

وأشـار إلـيهم بـالجلوس ، فجلسـوا علـى الأرائـك المتراميـة الأطراف ، وبسطوا عليهـا في راحـة وأمـان ، وهنالـك يـنهض الحـارث مـن مجلسـه ويمشـي أمامـه خطـوات ، ثـم يتحـول فيمشـي خطـوات عـن يمـين ، فـرأى هـؤلاء النـواب الأربعـة جالسـين مطمئـنين ، فيعـود إلى مكانـه قلقـا بعـض الشـيء مستشعرا بعض الخوف ، ولكنه تكلّـف الهـدوء وكظـم الغـيظ الذي يلهب في نفسه لهبا ، ولم يلبث أن كان يسمع ذلك اللغط الذي كان يسمع منذ اللحظة ، ولكنه يتميّزه الآن بعض الشيء ، وهو ليس صوتا منعقدا كثيفا ، ولكنه أصوات أولئك الرجـال الأربعة كانوا يتحدثون ويتحاورون ويقول قائل منهم : لا نريد أن نعصي لك أمرا ، ولا نريد أن نخالف رأيك مسـاء غـد في دار أبي إسماعيل ، لذلك آثرنا أن نراك قبل موعد اللقاء كمـا تحبّ وترضى ، قال موسى : ما ضقت بشيء قط كمـا ضـقت بهـذا الأمـر ، ولا أسـتطيع أن أخـرج مـن هـذا الضـيق إلا إذا شاركتموني في الحزم والعزم ، وأمضيتم معـي رأيـا أرى فيـه خيرا كل الخير ، لأننا إذا تركنا هؤلاء القوم على ما يحبّـون ، وخلينا السبيل بيـنهم وبـين أبـي إسماعيـل الصـنهاجي فـإنهم سينحرفون وسيعتدون ، وكلّكم يعلم أن أبا إسماعيل ليـذهبنّ

بهذا الأمر كل مذهب ، وليأخذن علينا الطريق ، وليسدنّ علينا المسالك عند أهل السلطة ، فيكون هذا الأمر شرا مستطيرا ، حيث إن المدد أعني بذلك المال إذا انقطع وجفت مصادره فإن توابعه شر ووبال ، فقال قائل منهم : وأي رأي تريد أن نرى في هذا الأمر؟ قال موسى : شكرا لك يا أخي ، فإن الرأي الذي رأيته هو أن نعود إلى القوم ونخبرهم بأننا التقينا أبا إسماعيل وأخذنا عليه عهدا على أن يعيد إلينا ابنة أخي سالمة غانمة قبل أن ينتهي شهر أو شهران . قال قائل آخر : وإذا انقضى الشهران ولم يعد إلينا إسماعيل وابنة أخيك ، فماذا نفعل؟ قال موسى : دعوا ذلك لي ، فإن اليوم لا يسد علينا بابه إلا ولنا في الغد ملاذ ومآرب . قال رجل ثالث : فكيف نتفق على رأي حاسم ، ولم يكن بيننا الحارث ، أفلا يثور علينا عند اللقاء ، ويتهمنا بجور وظلم في هذا الاتفاق؟ قال موسى : فوّضوا إليّ أمر الحارث ، فسوف أقنعه على ما اتفقنا عليه من رأي ، وأنا أعلم أنه لن يخالفنا في هذا الأمر ما دام هو يريد الإصلاح لا غير .

هنالك ينهض الحارث من مجلسه مرة أخرى ويمضي شطر الوجه الذي يأتيه الصوت ، ولكن فضلا من حياء أمسك

عليه نفسه ، وردّها إلى بعض الروية والأناة ، وقد جعل يذم نفسه ويؤنبه الضمير على وجوده في دار العم موسى ، وكان يرى في نفسه أن هذا الرجل الماكر قد دبر جميع الأمور في وجه النهار ، وبقي أن يتمم تخطيطها في هذه الليلة التي جمع في داره أولئك النواب كلهم ، وها هو ذا يسمع ذلك الماكر موسى يقول : خذوا مني هذه الهدية الطفيفة ، وهي نقود المشي وأجور النعال . فمدّ الحارث عنقه متطلعا فرأى موسى يقدّم إلى أولئك النواب كيسا مليئا بأوراق النقود ، فتضاحك نواب القوم وخرجوا متشاكرين ، هنالك لم يبق في نفس الحارث إلا الإعياء والفتور ، ولكنه يتمالك نفسه وينفق جهدا عنيفا ليذود عنها كل ما يرى ويسمع ، ويعود أدراجه ويستقرّ في مكانه ، فتمثل العمّ موسى أمامه باسم الثغر ، مبسوط الأسارير ، فقال متضاحكا : فماذا ترى ، وماذا تسمع؟ قال الحارث : لم أر شيئا ولم أسمع شيئا ، قال موسى : فلماذا أراك قلقا مضطربا ، مغرقا في الذهول؟ قال الحارث : لم أكن مترددا ولا مضطربا قبل لقائك ، فأما الآن فإنك قد أفسدت عليّ أمري كلّه ، قال موسى : لم أفسد عليك شيئا يا حارث ، بل كنت تخدع نفسك بالآمال والأماني ، وتخيل إليك أنك

تستطيع أن تقوم بشيء لم يستطع أحد من الناس أن يقوم به ، فأما الآن فقد تبين لك الأمر فيما ترى وتسمع ، وأنك ستطيل التفكير فيه قبل أن تكون شاذا منفردا برأيك بين جموع الناس ، ثم سكت قليلا ، ثم قال : وإن كنت حريصا على الراحة والعافية مؤثرا لهما فعليك أن تنضم إلى رأي نواب القوم غدا عند اللقاء ، هكذا نهض الحارث متثاقلا يسحب رجليه نحو الباب دون كلمة ولا وداع .

(٩)

وأقبل الضحى من الغد ، وإذا هو حدث عظيم قد شاع خبره في البلد كلّه ، وشغل أهل الميمة بهذا الحدث منذ الصباح ، وكان نواب القوم قد ألهاهم ذلك الحدث عن موعد لقائهم في فترة مساء ذلك اليوم ، وكانوا ينتظرون من أهل السلطة أن يفسروا لهم كيف وقع هذا الحدث المؤلم العظيم ، وكيف وصل إليهم خبره ، وشاع في أقرب وقت ممكن ، لأن الحدث قد وقع في بلاد ما وراء البحر ، ولم تمض عليه ساعات حتى شاعت أخباره ، وتناقلتها جميع الألسنة وينطق بها القاصي والداني من أهل البلد ، ويثيرون حولها أسئلة عديدة لا يستطيع أن يجيب عنها إلا من شهد الواقع ، قد شاع خبر موت إسماعيل الصنهاجي وشاع معه أن ابن موسى هو الذي ساق السيارة مصطدما فمات فيها إسماعيل ، وكان اسم الفتى السائق هو نعمان ، وكان أبوه موسى هو الذي استعان بأبي إسماعيل على أمره ، وقد كان من قبل فتى غارقا في

فنون من اللهو والفسق والمجون مع نفر قليل من فتيان أهل « ميمة » ، وكان يشعر بالرضا عن هذه الحياة المطلقة وما فيها من حرية لا تفنى ، تلك الحرية التي يستمتع بها الجسم وتستمتع بها النفس والضمير ، كل ذلك كان يعجب الفتى نعمان ويرضيه ، وكل ذلك يغريه إلى طلب مزيد منه ، ويلهيه عما يجب عليه أن يقوم به كمواطن صالح ، أما أبوه موسى فكان شفيقا عليه رفيقا به ، يكلؤه ويرعاه ويحوطه ويحميه ، يخشى عليه العوادي ويضنّ به على المكروه ، وكان يشكو أمره إلى صاحبه أبي إسماعيل ويطلب منه أن يعينه على إخراجه من المدينة ، ويبعثه مع وفود من الطلبة إلى بلاد ما وراء البحر ، وكان أبو إسماعيل يهوّن عليه ما كان يستصعبه ويصوّر أن الفتى نعمان قد أصبح شابا لا بأس عليه من مشقة السفر ولا خوف عليه من عوادي بلاد الغربة ، وهو بعد سيكون في طائفة من أبنائهم يحملون إليهم الثقافة والحضارة في أقرب وقت ممكن .

كذلك بُعث نعمان إلى بلاد ما وراء البحر للتعلّم والتهذب والتثقف ، ومكث هناك زمنا طويلا قبل أن يلتحق به إسماعيل وزوجه ثويبة على أمر قد قدر ، وها هو ذا اليوم يسوق سيارة فاخرة ضخمة ويصطدم بها أخرى على الشارع فمات رفيقه إسماعيل في تلك اللحظة ، وبقي هو في المستشفى جريحا

طريح الفراش يتردد بين الموت والحياة ، كذلك بدأ الناس يهرعون إلى دار أبي إسماعيل للتعزية كما كانوا يهرعون إلى دار موسى للتنفيس عنه الكرب والتهوين عليه المصائب والخطوب ، وكانوا يرون أن هذه الحادثة المؤلمة قد أصبحت حديث جهيزة وقد قطع كل خطيب ، وكانوا ينظرون إلى موسى وإلى إغراقه في الصمت إغراقا طويلا ، وهم لا يعلمون بماذا يحدث به نفسه ، وبماذا يفكر ، وكلما يحاول القوم أن يقطعوا عليه أفكاره التي تحمل هموما ثقالا ، فسرعان ما يبتسم لهم موسى ابتسامة تقطعها العبرات تقطيعا ، وليس من شكّ أنه يضحك في نفسه ضحكا حزينا يوشك أن يكون يأسا مهلكا وثورة جامحة لولا أنه ذو قلب يعلم كيف يطمئنّ للأحداث ويذعن للخطوب ، ويصبر على النائبات ، وهذا كله هو ما يراه المعزّون في ذلك اليوم ، ويرون كذلك أن رجلا من دار أبي إسماعيل قد دخل عليه واستأذنه إلى زاوية من زوايا البيت ، وجرى بينهما حديث لا يستغرق وقتا طويلا ، ولما انتهى الحديث مضى ذلك الرجل في سبيله وعاد موسى إلى مجلسه مطرقا صامتا في وقت قليل ، ثم رفع رأسه والتفت إلى الحارث وقال : أنت ومن معك من نواب القوم ستذهبون معي إلى دار أبي إسماعيل في صباح غد .

(١٠)

واجتمع القوم في دار أبي إسماعيل على أثر موعدهم قبل فراق أمس ، وكان هذا المجلس قد ضمّ أشراف أهل الميمة والنونة ، ورجالا من أهل يلملم ، وكان أبو إسماعيل ينظر عن يمين وشمال في مجلسه ، وكان يرمي بتلك النظرات كل زائر كأنهنّ سهام من نار ، وما إن وقع نظره المتوقد على صديقه موسى حتى تفجّر طوفانا وغضبا ، وقال في صوت تظهر فيه الحدة والقسوة ويظهر فيه السخر والضحك معا : ويحك يا موسى! أما ترى ما فعل ابنك نعمان بابني وقد قتله فعلا ودمّر حياته لأجل ابنة أخيك الراعي ، وأنتم يا أهل الميمة قد انتقمتم لأخيكم شيبان ، واستخدمتم نعمان لأخذ الثأر من ابني في بلاد الغربة ، ولما رأى نعمان أنه لا يستطيع أن يواجه هذه الجريمة في صحو وعقل ، وينفذ ما اتفقتم عليه من الانتقام في جراءة وشجاعة أسكر نفسه بالخمر

أو المخدرات وساق ابني إلى الموت كما تريدون . وكان يقول هذا ويهزّ رأسه أسفا وتنهال الدموع من عينيه غزارا ، ثم يستمرّ في حديثه ، ويقول : لا والله لا أستريح حتى آخذ ثأر ابني ولأثبتنّ لكم أن الحرب لا تعرف الصداقة .

هنالك أخاف القوم وملأ قلوبهم هولا ووجلا ، وقام موسى مبهوتا وقال وهو يتكلف الابتسام : ما رأيت أحدا بلغ به الغيظ ما بلغ بك أيها الصديق وأنا لا أفهم حتى الآن كيف يتسول لابني أن يقتل صديقه و لا أفهم كيف يأتمر القوم على قتل أحد أبنائه على أمور تافهة ، وقد كان ينبغي لك أن تعلم أن ليس لنا في هذا الأمر حول ولا وقوة ، وليس لنا عليه أمر ولا نهي ، وأننا لا نملك سبيل الوصول إلى بلاد ما وراء البحر إلا بواسطة أولي البأس والقوة من أمثالكم ، فأنى يكون القتل والمؤامرة في الحادثة التي لا ناقة لنا فيها ولا جمل ، والذي نفسي بيده ما أرى في هذا الأمر كله إلا قدرا مقدورا ، قال أبو إسماعيل : أنت تحدثني عن القدر ، وما هذا القدر الذي أمات ابني وأحيا ابنك ، وترك في حياتي حزنا لا يفارقني أبدا؟ قال موسى : أفأنت تنكر مشيئة القدر الآن ، أتذكر حين حدثتني عن ثويبة في أول مرة؟ أتذكر أنني حذرتك من

أمرها ومنعتك من كل شيء يؤدي إلى الشر فيما بيني وبينك ، والله ما كنت مؤثرا للتحذير في ذلك اليوم إلا ما أتوقع في هذا الأمر من خطر عظيم ، أما أنت في ذلك اليوم لم تأخذ كلامي مأخذ جد ، وإنما ذهبت به كل مذهب ، وأوّلته تأويلا يوافق هواك ، وها أنت في هذا اليوم تقول شيئا آخر كاد يخرجني عن طوري ، ولقد علم الله أنني لا أزال أحبّك وأكرمك وكذلك كان قومي ، فهم لا يزالون يتبعون هواي في شخص أحبّه وأكرمه ، وها هم جالسون بين يديك فاسألهم عما اتفقنا عليه في ليلة ما قبل أمس ، فستعلم في أمرهم ما يجب على القوم الكرام أن يفعلوه في أوقات العسر واليسر ، وما يجب عليهم أن يسهموا في الأمر سرا وجهرا ، لكن من العجب أنك تدبر لهم من الأمر ما سينغص عليهم أيامهم ويؤرق عليهم لياليهم ، ويكدر عليهم صفو الحياة ، فو الله ما أرى في هذا التصرّف إلا ظلما بيّنا وجورا عظيما .

وسمع موسى أصواتا مختلطة خارج الدار فسكت كأنما يريد أن يتبيّن ما سمع فيضرب أبو إسماعيل إحدى يديه بالأخرى فيدخل نفر من الشرطة ، فإذا هم يحملون العم موسى على أكتافهم ويذهبون به إلى حافلتهم أمام الدار فصاح

الحارث وجماعته، فزجرهم الشرطة وأرهبهم بالقيد والبنادق، وتحطم صوت موسى وجرت دموعه على خديه، ونهض إليه الحارث باكيا شاكيا يضمّ إلى صدره تلابيب قميصه، وثبت أبو إسماعيل في مكانه هادئا ينظر إلى موسى وقومه نظرة عابسة ماكرة، ثم انفرجت شفتاه عن هذه الجملة التي قالها وهو يعود إلى داخل الدار متثاقلا: «لقد آن الأوان يا موسى»!.

(١١)

وقد أقام موسى في مركز الشرطة أياما طوالا ، لا هو سجين قابع مع أترابه السجناء في قلعة من قلاع الأرض ، فيعلم الناس في محاكمته ما ساقه إلى السجن ، ولا هو حرّ طليق يعيش بين أهله هنيئا مريحا ، فيعلم الناس أنه بريء من التهمة والجريمة التي لأجلها ساقته الشرطة إلى معقلهم . بل ظلّ قلقا مضطربا بين ماضيه الذي فتح أمامه أبوابا عراضا إلى الأمل ، وبين حاضره الذي أورثه يأسا وقنوطا من كل شيء ، وكان يرى في ماضي حياته أنه يتطلع إلى السمو والعلا ، ويتسامى إلى قمة المجد والسؤدد الذي لا يمكن لأمثاله أن يجدوا قبضة يسيرة مما حصل عليه أو يجدوا سمعة طيبة كان يتمتع بها ردحا من الزمن ، أما اليوم فقد انقلب الأمر رأسا على عقب فأصبحت أيامه مظلمة قاتمة تكاد تؤيسه من كل شيء ، وتدمر له كل شيء . ولقد أفسدت عليه الأيام أمورا

لا يحصيها إلا الله ، وخاصة أمور ابنه نعمان ، وقد كان يتمنى من قبل أن يكون قائدا من قادة الفكر ، وبطلا من أبطال ساسات أهل هذه البلاد ، أما الآن فهو لا يدري أين يسوقه القدر ، وأين يكون مصيره في هذا كلّه ، ولقد كانت الشرطة يطالبونه بشيء لا يقدر عليه ، وكانوا يريدون أن يستجوبوا نعمان على موت رفيقه إسماعيل ، وأن يرفعوا قضيته إلى المحكمة العليا إن عجزوا عن إثبات حقائق الأمور ، لكنهم لم يصلوا إلى شيء من ذلك ، ولم يجدوا إلى المحكمة العليا سبيلا ، وكلّ ما استطاعوا في هذا الأمر هو أن يعتقلوا موسى الذي هو أبوه ويحبسوه في زنزانتهم ، ولعله إن سمع باعتقال أبيه يعود إلى الوطن ، ويبدأ دور محاكمته في وقت لا يطول ، لكن هيهات وهيهات ، فإن نعمان لم يعد إلى الوطن بعد ما خرج من المستشفى ، ولم يترك ابنة عمّه ثويبة أن تعود إلى أهلها . كذلك لبث موسى في الزنزانة أياما طوالا ، لا يزور ولا يزار وإنما يسمح لامرأتين من أهله أن تقدما له طعاما وشرابا ولباسا كلما كان يحتاج إلى هذه المواد بكرة وأصيلا . وهاتان المرأتان هما : زوجته التي كان اسمها راضية ، وبنتها التي كان اسمها نُعمى .

(١٢)

ذات يوم جاءت راضية وابنتها نعمى إلى مركز الشرطة لزيارة موسى فوجدتا شرطيا على مكتب الشرطة كان يستمع إلى الإذاعة التي وضعها على جانب من جوانب المكتب، فسلمتا عليه ولم يردّ الشرطي تحية ولا سلاما، وإنما استغرق في ازدراد الخبز اليابس الذي كان يغمسه في الشاي الذي لا لبن فيه ولا سكر، ويمصّ هذا الشاي مصّا ويزدرد الخبز ازدرادا، وقد يعبّ عبّا ويحسّ في حلقومه بحرارة الشاي ويصفر صفارة طويلة كأنه إبريق قد مسته نار وغلا ماؤه، وبدأ تنطلق صفارته في الجوّ في شدة وصراخ، وكانت نعمى تنظر إلى هذا الشرطي المضطرب وتختلس في عينيه الحادتين اختلاسا، وكانت أمها تتحدث إليه في هدوء متكلّف وأناة مصطنعة، وصوت يكاد يتفجر فيه الغيظ المكظوم: ما بك يا رجل؟ أفلا يكون لك قلب رحيم فتقتصد في هذا البغض وهذه الإهانة!

هنالك نظر الشرطي إلى وجهها المشرق الذي يترقرق فيه حزن رقيق وقال : مهلا! مهلا! يا سيدتي فإني لن أدعك تلومينني كما تشائين ، ولقد علمت أنك لم توليني عملا من أعمالك . قالت نعمى وهي تصرخ : لا أرى فيك إلا طمعا وهلعا ، ألم يكفك ما أخذت منّا من الرشوة منذ أن نزل أبي هنا ، فتستطيع أن تلقى الناس بغير ما تلقاهم بهم من الخزي والهوان؟ قال الشرطي وهو محتفظ بهدوئه المتكلّف : « وما نحن وهذا الصراخ يا فتاتي؟ لك الويل والعويل ما تشائين! أما أنا فلن أبرح ألتمس منكما رشوة حتى أجد فيها من المال ما يشغلني عن نفسي ويصرفني عن همّي ، فإن لقيت فيها الموت فلا بأس عندي ، فسأستريح من حياة لم أجد فيها إلا عناء وحزنا » . قالت الأم راضية : فإنك لم تفعل من هذا شيئا إلا أن تكون شرطيا عاقا يخون وطنه وبلاده! قال الشرطي وهو يتقهقه قهقهة شديدة : ماذا تقولين يا سيدتي؟ ألم يحدّثك زوجك عما ساقه إلى هذه الورطة الكبرى فتعلمين أنها ثمرة خيانة الوطن ، وأنها ثمرة التكالب على الدنيا والتهافت عليها ، اسمعيني يا آنسة فإن زوجك موسى ليس عندنا بغريب ، وهو من أصحاب ساداتنا الذين سبقونا في خيانة هذا الوطن العزيز وتدميره لأجل المال والسلطة ،

فأي عيب إذن في أن نسلب عنكم قدرا يسيرا مما جمعتموه من أموال الدولة ، ونخفف عنكم بضاعة الذنوب والمعاصي . وإذا قدمتم إلينا الرشوة فمن الحقّ أن نأخذها منكم أخذا لا رحمة فيه ولا إشفاقا . قالت نعمى وهي تزفزف غيظا وحنقا : ماذا تقول يا سافل ، فإني لا أفهم منك شيئا ، قل لي أين عرفت أبي؟ وما علاقتك به؟ وكيف تتهمه بما لا تعلم شيئا عنه؟ قال الشرطي وهو يبتسم ابتسامة ساخرة : فإنك ستعلمين من هذا كلّه ما جهلت بعد حين .

هنالك دخل شاب أمرد في زيّ الشرطة لا يتجاوز السابعة والعشرين من عمره ، وقد تألق وجهه بشرا ، ولكن الحزم والعزم ظهرا في عينيه الجاحظتين ، وكان قويّ الجسم مرتفع القامة ، يمتدّ عماد جسمه في الفضاء . ولقد نهض الشرطي عندما رآه مقبلا نحوه ، فهشّ له وبش ، وقال في صوت ممتلئ هادئ رزين : طالما تنتظرك يا مولاي! وكان هذا الرئيس يسمع له ويصغي إليه ثم ينظر إلى من حوله من الناس فإذا هو يلقى عليهم تحيته هاشا باشا ، ثم يسألهم عن حاجتهم واحدا واحدا . هنالك أسرعت نعمى إلى الجهر بالقول وبدأت تحدّثه عما لقيت هي وأمها من جفاء الشرطي ووقاحته ، وما حدث بينهما من خصومة وملامة شديدة ، ونظر الرئيس

إلى وجه أمها وإذا هي ترسل دموعا هادئة تنحدر على وجهها الشاحب غزارا ، وأحسّ الرئيس ألوانا مختلفة من العواطف : أحسّ الغيظ والخلق ، وأحسّ الثورة والغضب ، وأحسّ الرحمة والإشفاق ، وقال لامرأة موسى آخر الأمر : أقيمي يا سيدتي في الدار وادعة مطمئنة ، ولك بعد هذا ألا تجدي في هذا المكتب إلا ما ترضين لا أسألك في ذلك إلا أمرين : أن تفرغي لنفسك فتقعدي في البيت لحوائج أخرى ، وأن ترسلي ابنتك هذه إلى أبيها وتتصل هي بي كلما أرادت أن تزوره هنا ، فأقوم أنا بالإجراءات اللازمة التي تخصّ الزيارة ، ثم دسّ يده في جيب زيّه الرسمي فأخرج بطاقة كتب فيها اسمه ووظيفته ومنصبه في العمل ، وقدّم هذه البطاقة إلى نعمى ، فأخذتها منه مشرقة الوجه باسمة الثغر ، فقرأت ما فيها فإذا هو حارس السجن ، وكان اسمه هو حيدر عيسى . كذلك انصرفت نعمى وأمها مبتسمتين ، وكانتا لا تستطيعان أن تضمرا ما في نفسيهما من ابتهاج وسرور ، ولا تستطيعان أن تخفيا ما ترك هذا اللقاء في قلبيهما من فرح وحبور .

(١٣)

بدأت العلاقة تنمو وتتطوّر بين نعمى وحارس السجن ، وكانت هذه العلاقة صافية نقية في بداية الأمر ، حيث كانت نعمى تتصل بالحارس تلفونيا كلما أرادت أن يجهّز لها الأوراق ويمهّد لها طريق الوصول إلى أبيها في أقرب وقت ممكن ، ولم يلبث أن أصبحت هذه العلاقة تشتدّ وتقوى وتجعل كلا منهما يحسّ شيئا آخر في نفسه ، وكان هذا الشيء لم يتصل بأمر موسى ولا بأمر الزنزانة ، وإنما يبدو أنه حبّ طبيعي بدأ يسلك بهما مسلكا عجيبا .

كانت نعمى تذهب إلى مكتب الحارس حيدر في معظم الأوقات دون أن تتكلم عن زيارة أبيها ، ودون أن تحمل أي متاع يحتاج إليه أبوها ، وكذلك كان حيدر فهو يأتي إلى دار موسى ليلا ، ويلتقي بنعمى وتجري بينهما ألوان من الحديث لا تستطيع لغات الناس أن تصوّرها لأنها غامضة أغمض من

أن تسعها الألفاظ ، ولأنها واضحة أوضح من أن تنكرها النفوس ، وهي حديث العيون ، ونجوى الضمير ، ومسامرة القلب إلى القلب ، ثم طغى هذا الحبّ ، فأخذت نعمى ترافق حيدر في وجه النهار للنزهة والتجوّل ، وكان أهل الحيّ يرونهما في سيارة فخمة يتبادلان القبلة حينا ، ويتصفحان أحيانا ، ويذهبان كل مذهب في تعبير للناس عن هذا الحبّ الطاغي الجديد ، فأخذ أهل الحيّ يتكاثرون الحديث عن سلوكهما ، ويتناجون فيما بينهم عما يغرقان فيه من عبث ولهو وتمرّد على تقاليد المجتمع .

وكان الحارث في هذا كلّه يحدّث نويرة عما يرى ويسمع عن هذين العاشقين الجديدين ، ويذهب بهذه الأخبار مع حبيبته نويرة إلى أم نعمى ويتحدّثون وتثور الأم غضبا على ابنتها نعمى ، وتحذّرها وتشير إليها مثلا ما حدث بين إسماعيل الصنهاجي وثويبة ، وما أحدثت مصاحبتهما من فتنة وشغب واعتقال . لكن نعمى تسمع هذا كلّه ولم تعره التفاتا ، وإنما تمضي في غمرات حبّها وعشقها مغرمة مفتونة ، فتزداد كل يوم عنادا وإصرارا ، فتوسل الحارث برجل من الشرطة والتقى بالعم موسى وراء الزنزانة وجعله يفهم كل ما يجري

في بيته بعد غيابه الطويل ، فهوى موسى صريعا مغشيا عليه ، ولم يفق في ذلك اليوم إلا في المستشفى .

هنالك فتح موسى عينيه الغائرتين بعد ساعتين ونصف ليرى من حوله من الناس ، فوجد نفسه مستلقيا على مضجع من مضاجع المرضى ، ووجد عددا غير قليل من أهله وأقاربه يلتفون حول هذا المضجع التفافا شديدا ، وجعل يفكّر في هذا السجن الاحتياطي الذي عرف أوله ولا يعرف آخره ، وجعل ينظر إلى كل وجه من الوجوه التي أحاطت به من كل جانب ، وجعل يفتح فمه قليلا قليلا ، وأخذ ينطق إلى أول من عرف من أصحاب هذه الوجوه ، وقال في صوت خافت لا تكاد تسمعه الآذان إلا بعد إصغاء تام: لا تغضب يا حارث، ولا يثقل عليك قولي ، ولقد حسست شيئا من الندم في هذه اللحظة التي أتاحت لي الاتصال بك وبصاحبتك نويرة ، فما عرفت أننا نجني من لقاء الناس أو الاتصال بهم خيرا ، وإني لأخشى أن يكون لقاؤنا هذا اليوم نذيرا بشرّ لا نقدر عواقبه ، ولا يقدر الزمان نفسه عواقبه . ادْنُ مني وأصغ إليّ ، فقد اختلط الأمر أمامي أشدّ الاختلاط ، وويل للأحياء حين يدبرون أمرهم مع الموتى ، ولكن لا بدّ مما ليس من بدّ ، لقد

بدأت القصة فيجب أن تنتهي ، وكل ما أحدّثك به الآن أخشى أن أكون قد آذيتك وتحدثت إليك بما لا تحبّ ، ومع ذلك فما أردت بك شرا ولا قصدت إلى ما تكره ، ولكنك تعلم من أمرنا غير قليل . فقد ألممت بسيرتنا في الزمن الأول ، وعرفت ماذا بلونا من الناس ، وماذا بلا الناس منّا ، وما أيسر العلم بذلك لك ولغيرك من الأهل والأقارب لو يفهمون ما يسمونه لعبة القدر!

معذرة إليك يا حارث ، فما أرى إلا أنني قد استقبلت عهدا جديدا سأستأنف فيه حياتي الآخرة! لأن الطبيب الذي زارني في الزنزانة في ليلة ما قبل أمس ، قد أكرهني على حقنة أظنها مخدّرة سامة ، فحاولت صلحا بينه وبيني ، واعترف لي أن هذا الصلح لا يضمن له البقاء عند رجال السلطة ، ولا يضمن له السلم ، هنالك فعل بي ما أمر بفعله ، وبدأت قواي تنحل قبل أن تأتي في صباح اليوم بحديث يضطرّني الآن إلى السكون والراحة الخالدة ، لكن قبل أن ألتقي أخي شيبان ويلتقيني ، فأودّ لو أذن لك على زواج ابنته نويرة في أقرب وقت ممكن ، وليبارك الله فيكما ، وليصلح أحوالكما في اليوم وغدا .

هنالك أدمعت عيناه غزارا ، ونظر إلى الجانب الأيمن فإذا عيناه تقعان على ابنته نُعمى ، وكاد أن لا يتبين صورتها مما طرأت على وجهه من غشاوة ، ولما أيقن بوجودها في هذا الأيمن ، قال في تهالك وفتور : يا نعمى إنني أخشى أن تكون كلمتي أغلظ مما كنت تتوقعين ، وأحبّ أن تعتقدي أنني ـ على الرغم مما بلغني من تصرفاتك في هذه الأيام ـ لم أزل أبا وفيّا ووالدا عطوفا ، ولقد طالت غيبتي عنك ، فما طالت عن رغبة ولا عن رضا ، وضاقت بنا الأحوال ، وما أحببت ذلك قطّ في حياتي . وأعترف بأن الأمور قد دارت دورتها ، وتكشفت عما لم أكن أنتظره ولا أرجوه ، وأن الأوضاع قد انقلبت واختلط كل تقدير وتدبير ، لذلك كان لا ينبغي لي أن أكره شيئا تفعلينه لأجل إنقاذي من الحبس والاعتقال ، أما بعد هذا اليوم فلا محنة ولا فتنة ، ولا ما يشبه الحبس في زنزانة الشرطة . وكلما يجب عليك التفكير فيه هو ذلك الحبّ الطاغي الذي أظلك في هذه الأيام . أما أنا فلست أنكر شيئا منه، إذ لا شيء يستحق منا الاحترام إلا لحظة حبّ ظفرنا بها، ولكن تلك اللحظة أين هي؟ أنستطيع أن نظفر بها في كل

حين؟ لذلك أرجو يا بنيّتي أن تعيدي النظر فيه على تؤدة ومهل ، والله يتولى رعايتك!

قال هذا كلّه وبدأ يسعل سعالا متتاليا ، وأمسك حديثه لحظات ، وبعد ما هدأت نوبة سعاله نظر إلى وجه امرأته فقال في حبّ ولهفة وحنان : يا راضية لا تيأسي من نعمى فسوف تجدين عندها ما تريدين ، أمّنيها وهدّئي من روعها ، ثم دعيها ترسل نفسها على سجيتها ، واسمعي لحديثها وأجيبيها جادة حينا وهازلة أحيانا ، وانتظري نتيجة ذلك فسترضين ، أما نعمان إذا قدر الله عودته إليك فقولي له : إنني أنتظر منه عملا يقيم مجدنا وجدودنا ، ويبقى ذكرنا في هذه البلاد .

ولم يتمّ موسى حديثه حتى ضاق صدره ، فمدّ يده إلى امرأته فقال متقطعا : تفضّلي يا راضية فتمنحيني يدك الكريمة الرشيقة لأضع عليها قبلة كلّها وفاء وحبّ وإخلاص . ولم تكد راضية تقترب منه بيدها حتى فاضت روحه في صمت وسكون!

(١٤)

وبعد أيام وشهور ، وقد بلغ نعمان خبر وفاة أبيه موسى ، وبلغه ما أحاط بموته من كيد ومكر ومؤامرة دبرها رجال السلطة للتخلص منه . سمع ذلك كلّه وضاق به أشدّ الضيق ، وكان يرى نفسه أنه هو مصدر ذلك الحدث كلّه ، أليس هذا هو الذي شرب الخمر ، وساق السيارة مصطدما وسبب موت إسماعيل الصنهاجي؟ ولولا هذا الاصطدام ما كان الحبس والاعتقال ، وما كان الكيد والمكر الذي أدى إلى موت أبيه . كان نعمان يفكّر في هذا كلّه ويؤنّبه ضميره ، ويرى في آخر الأمر أن يصنع شيئا يغسل ذنوبه ويمحو خطاياه .

ولقد بلغه فيما سمع من الخبر أن الحارث قد تزوّج بنويرة ، وأن نعمى قد تزوجت من حيدر عيسى ، ولم يبق من الأسرة إلا هو وثويبة التي أنجبت طفلا منذ شهرين ، وهو الذي كان يعتني بها بعد وفاة زوجها ، وكان يواسيها ويزوّدها

بكل ما تحتاج إليه من نفقات ، وكان يقوم بهذا كلّه بعدما أيقن في نفسه أنه هو مصدر هذا الحدث كلّه ، لكنه يعلم في الوقت نفسه أنه لم يتعمد الإساءة إلى إسماعيل الصنهاجي ، ولم يقع الاصطدام عن تعمد منه كما يقول أبو إسماعيل ، وإنما كان الإسراف في العبث والمجون هو الذي جعله مدمنا بشرب الخمر كيف شاء ، ومتى شاء ، وأدّى به شرب الخمر إلى ما وجد نفسه فيه من ويل وعذاب .

كان يفكّر في هذا كلّه ، ويفكّر فيما سيقول الناس عنه إذا ردّ إليهم ابنة عمّه وطفلها اليتيم دون أن يرافقها في السفر ، دون أن يزودهما بما يكفيهما من مال ومتاع ، وكان لا يدري ماذا يُفعل به إذا عاد بهما إلى أهله ووطنه سالمين موفورين . وعلى هذا النحو كان نعمان يفكّر ويقدّر بين هذه الأوهام كلّها ، وكان لم يستطع أن يخرج منها أحيانا إلا حائرا متولها مبهوتا .

وجاء ذلك اليوم فأقبلت عليه ثويبة متسائلة : يا ابن عم ، إلى متى أعيش هنا بلا هدف ولا مصير ، ولقد مات إسماعيل الذي لأجله أتيت إلى هذه البلاد ، ولا زوج لي الآن ولا رفيق ،

وكل ما بقي لي في هذا الوطن هو هذا الولد! أليس من الخير أن أعود به إلى جدّه قبل فوات الأوان؟

قال نعمان : ما ينبغي لي أن أكره شيئا تقولينه لي ، ولقد كنت أنتظر منك الحرص على أن تتصل بينك وبيني الأسباب ونأخذ هذا الأمر مأخذ جد ، ونسلك به مسلكا يشملنا الزمان فيه بحمايته ورعايته ، ولقد رأيت أن إذني لكما بالرحيل يجعل الناس يظنّون بي الظنون ، ويجعلهم يرونني رجلا لا رحمة في قلبه ولا إشفاق ، ويجعلهم يزعمون أنني مقصر في حق الصديق الذي ألمّت به الأحداث ونزل به المكروه فلا أحفل بعاقبته ولا بابنه ، ثم لو رحلت معكما إلى الوطن وقصصت عليهم الأمر من أوله إلى آخره لأنكروه ، وليقولن أبو إسماعيل للناس إنني جزيته على أمر ابنه جزاء سنّمار .

قالت ثويبة : فماذا ترى إذن يكون حلاًّ لهذه المشكلة؟ قال نعمان : الحلّ الوحيد الذي رأيت هو أن نستمرّ بالمكث هنا زوجين ، ونتعاون معا على تربية هذا الولد ، وأنا لا أشكّ أن هذه القضية ستنتهي بعد حين فتستريحي أنت وأستريح أنا ويستريح الزمان منّا وأهل الوطن كلهم .

سمعت ثويبة هذا كلّه ، وظلّ لسانها معقودا ، وجعلت تنهض متثاقلة تهدي إلى نعمان ابتسامة حلوة يليها الدمع ، ثم سعت إليه حتى بلغت مكانه واستوقفت نفسها متمالكة ومتماسكة ، وأخذت تنظر إليه فتطيل النظر ، ولا تقول شيئا ، وجعل نعمان ينظر إلى ذلك الصمت الطويل ويفهم منه أنه صراع بين حبّها له وحزنها هذا المتصل ، فمدّ إليها يده وأجلسها إلى جانبه ، وطوّق عنقها بذراعه وهو يداعب شعرها بيده . هنالك هدأت ثويبة ورقت ولانت حتى صارت عيناه تنهال دموعا غزارا ، لكن شفتيه قد ظلّتا مقفلتين دون أن تنفرجا عن شيء ، وهنالك قال نعمان بعد أن ضمّها إلى صدره ضمّا عنيفا : كم أحبّ أن أعتذر إليك قبل اليوم على هذه الحالة التي وجدنا نفسينا فيها ، وكم أحبّ أن أضمك إليّ وأن نمزج دموعنا التي تصوّر ما يملأ قلبينا من اليأس والقنوط معا! فهلا تقبلين معذرتي يا ثويبة فيمكن لنا أن نبدأ من الآن حياة جديدة يكون قوامها الحبّ والوفاء ، هنا تقول ثويبة في شيء من الاستحياء : لك ما تشاء في هذا الأمر كلّه!

(١٥)

لم تمض على علاقة نعمان مع ثويبة ثلاثة أشهر حتى أخذ أبو إسماعيل يمكر بهما مكرا ، ويلحّ عليهما في هذا المكر إلحاحا ، وكان يريد أن يتدخل رجال الشرطة في أمر نعمان ، وكان يريد منهم أن يمنعوه من حق المنحة وحق مواصلة الدراسة في بلاد الغربة ، وكان يرى أن هذا المنع سيعيده إلى مسقط رأسه شاء ذلك أم أبى ، وكان حيدر عيسى هو الذي يتطلع على هذا السرّ كله عن طريق بعض أصدقائه الذين يعملون في مركز الاستجوابات ، وكان يحدث زوجه نعمى كلما عاد من العمل عن تلك الوشاية التي انغمس فيها أبو إسماعيل في هذه الأيام ، وكان يرى أن هذه الوشاية إن نجحت ستوقع نعمان وزوجه في مشكلة لا تنقضي ، وكانت نعمى لا تريد أن تتساهل في هذا الأمر ولا تريد أن تلين قناتها كي لا تلدغ أسرتها من حجر مرّتين ، وهذا بالطبع هو

ما جعلها تستشير زوجها على أمر أبي إسماعيل ، وهي تريد منه أن يوقع أبا إسماعيل في أحبولة من حبائل الشرّ ، فيؤدي ذلك الإيقاع به إلى تقلص نفوذه وإحباط سعيه عند رجال الدولة ، وكان عيسى حيدر حارسا شرطيا قد تخصص في فنّ تدبير الكيد ونصب الأحبولة لأشرار من الناس ، لكنه كان يسمع تلك المشورة بإحدى أذنيه ، وكان لا يهتم بها في أول الأمر ، ولا يعيرها التفاتا ، وكأنه لا يريد أن يكون آثما يلوّث يديه بأعمال خبيثة ، أما زوجه نعمى فهي التي لا تنثني ولا تستكين وهي التي تحثّه على تنفيذ المشورة ، وتلحّ عليه في ذلك إلحاحا شديدا ، وكانت تهدده غير مرة بالفراق إن تساهل في الأمر ووقع الشر لأخيها نعمان ، هنالك فكّر حيدر عيسى وقدّر ودبّر لأبي إسماعيل مكيدة صارمة ونصب له أحبولة من حبائل الشرّ ، ولم تمض ثلاثة أيام حتى وقع أبو إسماعيل في شرك كبير ، فأخذ أهل البلد كلهم يتحدّثون عن أبي إسماعيل في عجب واستغراب .

وها هي ذي نويرة قد ذهبت إلى دار أبيها ، ورأت نعمى مقبلة عليها من الخارج ، ودنت منها نويرة وأجلستها على كرسي طويل كان أبوها يستلقى عليه عندما كان على قيد

الحياة . ولم تكد نعمى تجلس على ذلك الكرسي الطويل حتى ألقت نويرة عليها سؤالا في تهكّم وابتسام : ألم تسمعي ما حدث لأبي إسماعيل في نهار أمس؟ قالت نعمى وهي متعجبة ومستغربة : وما ذاك الحدث؟

قالت نويرة : ينبغي أن يخبرك زوجك الشرطي أن أبا إسماعيل قد أصبح محبوسا في السجن منذ نهار أمس ، فإن الحارث هو الذي أخبرني في صباح اليوم أن رجال الشرطة قد اعتقلوه على بيع المخدرات التي وجدوها في بعض خزائنه التجارية .

قالت نعمى متلهفة : يا للعجب! فإن حيدر لم يقل شيئا عن ذلك ، وهو يكتم لي خبرا قد شاع في البلد كلّه . ولقد كنت معه في ليلة أمس متحابة ومتعاطفة ، وجرى بيننا أحاديث مختلفة وذكرنا من شئوننا الظاهرة والمستورة ! ولا أدري من الذي أنساه هذا الخبر المؤلم الفظيع!

قالت نويرة : قد يكون في قلبه شيء آخر يشغله عن أمر أبي إسماعيل وأنت تعلمين أن الشرطة يتعرضون كل يوم للحوادث الطارئة والأحاديث العارضة التي تشمئز منها

النفوس . قالت نعمى : نعم ، قد يكون الأمر كما تظنين ، أما أنا فأرى أن شيئا آخر هو الذي أنساه ذلك الخبر . قالت نويرة : وما عسى أن يكون ذلك الشيء؟ قالت نعمى : هو حديث الحارث الذي أخبرني في ليلة أمس ، وهو يحدّثني أنكما تريدان أن تتركا هذا البلد لتذهبا إلى ما وراء الصحراء لرفاق لكما من العرب ، وكأن الحارث قد سئم أوضاع الحياة الاجتماعية في هذه البلاد ، لذلك كان يزمع السفر . قالت نويرة : أجل قد سئم الحارث أوضاع حياتنا الاجتماعية لذلك كان يحتاج إلى رحلة قصيرة تخرجنا من هذه البيئة وتصرفنا عن هذه الكوارث التي تفاجئنا كل يوم ، وفوق ذلك كان الحارث لا يريد أن أضع حملي هنا ، وإنما يحبّ أن يترعرع ولده في بلاد ما وراء الصحراء ، فيمكن له أن يربيه ، ويؤدبه ويهيئ له طريقا يسلكه لتحصيل العلم هناك زمنا طويلا ، قالت نعمى : هذا والله رأي جميل ، وأنا لاأشكّ أن حياتكما ستتغيّر بعض الشيء إذا تركتما هذه البيئة الشاحبة الحزينة وقتا مّا ، وتعيشان في بيئة أخرى فيها ترفيه عن النفس وتسلية عن الهمّ وتحقيق لما ينبغي من نشاط ، وربما يكون لنا في هذه البلاد الاستقلال التام قبل عودتكما فيستطيع أبناؤكم

وأبناؤنا أن يحرّروا بلاد التكرور من ألوان العذاب التي فرضها عليهم رجال السلطة مـن أهـل يلملـم . ولقـد أُنبِئـتُ أن أهـل يلملم قوم غرباء ، وكانوا يريدون أن يفوضوا زمام السلطة إلى أهلها الحقيقيين ، لكن الذي أوقفهم الآن عن هذا التفويض هو عدم القدرة والكفاءة عند أهل البلد في تدبير السلطة والشـئون الإداريـة ، وإنـي أعلم أن هـذه العلّة ستزول بعـد زمــن طـال أو قصر ، وسيعود الأمر إلى أهله إن شاء الله!

ولم تكد نعمى تنتهي مـن هـذه الجمـل الغامضـة الملتويـة بعض الشيء فيها تلميح حزين للمستقبل حتى ظهر على وجه نويرة ابتهـاج وسـرور ، كانت تشوبه الدعابـة المـاكـرة الــتي لا تخلو من مودة ومزاح ، وليس من شك في أن بينهما أمـرا تخفيانه ولا تريدان أن تظهـرا عليـه إلا شـيئا فشـيئا ، كأنهمـا تهيئان له تهيأه ، وتعدان له إعدادا ، فقالت نويرة في شيء مـن العزم والحزم : أما الآن فقد علمت فيك ما لا أعلم من قبـل ، ورأيت أنـك لسـت سـاذجة ولا مدللـة ، فمـن الخـير الآن أن أصارحك بحقيقة الأمر عن السفر الـذي أزمعنـاه بعـد غـد إن شاء الله! وأنت تعلمين أن الحارث رجل مغوار يكافح ويجاهد باستمرار على إعادة أرضـنا إلى أهـل الـبلاد ، لكنـه في هـذه

الأيام يرى أن رجال السلطة يقومون باضطهاد صناديد القوم عن طريق تدمير هويتهم وتشويه سمعتهم وتزوير أعمالهم ، وكانوا يسعون خاصة على الإيقاع بالحارث في الفتن وتشويه سمعته لدى الشعب كلّه ، وهذا كله هو ما جعل الحارث يفرّ إلى بلاد الشرق ردحا من الزمن ، وهو فرار كما ترين من كيد الخصوم وسعي المنافقين ، لكنه يكتم هذا الرأي لأعدائه وخصومه حتى لا يرهق من أمره عسرا . قالت نعمى وهي متضاحكة : فهمت هذا كلّه من بداية الأمر ، لكنني لا أريد أن أفاجئك به وأطالعك عليه وأنت تعلمين أنني أصبحت رفيقة الحارس الشرطي ، وإني أعلم بأسرار السلطة ، وأعلم بالوسائل التي يصل بها صاحب السلطة إلى منافسيه ومناوئيه ، وكم يتحدث عن طريقة يحاول أصحاب السلطة أن يكبحوه إذا جمح ويردوه إذا طغى ، وكم يقول قائلهم : إن حيدر عيسى قد أصبح من أمناء الحارث فيجب على حاكم المدينة أن يبغي عليهما قبل أن يقوم كلاهما بالبغي والعدوان ، وربما كان هذا القول هو الذي جعل زوجي يشير إلى زوجك بالسفر لفترة من الزمن ، فيستطيع كل منهما أن يريح نفسه من ويل الحكومة وعذابها .

قالت نويرة : وما أحسب أن هذا يحلّ المشكلة أو ينتهي بهما إلى غاية يريدانها . قالت نعمى : نترك ذاك للمستقبل وهو كفيل أن يكشف عن أمور الحلّ والعقد بلا شائبة تشوبها .

على هذا النحو افترقت كلتاهما ومضت كل منهما إلى حاجتها دون أن تعلم كلتاهما متى يكون لقاء آخر ، أهو يأتي بعد وقت قصير أم يكون بعد زمن طويل!

(١٦)

لم يخرج أبو إسماعيل من السجن إلا بعد أعوام طوال ، وكان يرى في بداية الأمر أن تلك التهمة التي يرميه بها المدعون لا أساس لها من الصحة ، وكان يظن أنه بريء منها ، ويظن كذلك أنه لن يمكث فيها إلا شهرا ، لكن الأيام تريه أن هذه التهمة لم تكن هينة ولا ميسورة ، وإنما تشتدّ كل يوم وتقوى ، وتصبح شيئا لا يطاق ، هنالك استجار أبو إسماعيل بمعارفه من رجال السلطة على إنقاذه من تلك الفتنة التي لا رأس لها ولا ذنب كما يقولون في هذه الأيام ، لكنهم خذلوه ولم يجد أحدا من الأصدقاء يجيره عند القاضي ، وحاول أن ينقذ نفسه وبيّن للقاضي أن تلك التهمة ما هي إلا قذف وافتراء بالباطل ، وتزوير واقعة لم تكن ، قال هذا كلّه لكن قد ذهب مقاله هباء منثورا ، وفي نهاية الأمر حُكم عليه ولبث في السجن بضع سنين .

وفي أيام أبي إسماعيل في السجن قد بدأت حركة تحرير البلاد من الشباب الوافدين من وراء البحر ، وكان من بين هؤلاء الوافدين هاشم بن إسماعيل الصنهاجي ، وقد أصبح محاميا وسياسيا يعقد المؤتمرات والمظاهرات على تحرير بلاد التكرور من أيدي الغرباء والأجانب ، وكان يرى من الحمق أن يناضل لتحرير بلاده دون أن يناضل للإفراج عن جده الصنهاجي من السجن ، كذلك بدأ هاشم المحامي مرافعة قضية جدّه إلى المحكمة من جديد .

ولله في خلقه شئون ، وقد ظهر للمحامي هاشم عندما بدأ يبحث عن سبب هذه القضية ، ويبحث عن الحقائق التي تتصل بها اتصالا قويا ، ظهر له في البحث أن تلك القضية كانت مصطنعة ومزيّفة ، وظهر له كذلك أنها قضية لا أساس لها من الصحة ، وإنما هي مصيدة وقع فيها جده الصنهاجي ، وأن الذي وراء هذه المصيدة هو ذلك الحارس الشرطي حيدر عيسى زوج أخت نعمان الذي ربّاه وهذّبه ومهّد له الطريق إلى المنصب الذي كان يتمتع به في هذا اليوم . هنالك أصبح هاشم حائرا متولها ، لا يدري ماذا يجب عليه أن يفعل ؛

أيحاكم زوج أخت مربّيه على هذه القضية المصطنعة أم يهملها إهمالا تاما فيطول مكث جدّه الصنهاجي في السجن؟

على هذا النحو من الحيرة والذهول أنفق هاشم شهرا أو شهرين ، ثم اهتدى في آخر الأمر إلى بعث رسالة إلى نعمان وأمّه ثويبة يخبرهما فيها عن الحقيقة والواقع في قضية أبي إسماعيل الصنهاجي ، ولم تكد هذه الرسالة تصل إلى نعمان وزوجه حتى أزمعا السفر إلى بلاد التكرور .

(١٧)

عقدت الجلسة بعد عودة نعمان وزوجه إلى البلد في مكتب حيدر عيسى بالقرب من السجن الذي زجّ فيه أبو إسماعيل ، وكان ذلك اليوم مساء ، وكان المجلس يضم أفرادا من أسرتي موسى المرحوم ، وأبي إسماعيل السجين ، ولقد جلس القوم على الكراسي صفّا صفّا ، ولبثوا لحظات مأخوذين يبهرهم ذلك الجلال الذي لا يرقى إليه الوصف : جلال الصمت قد امتدت أرجاؤه حتى طبقت الجوّ كلها ، وجلال الظلمة التي كانت تروع لكثافتها وامتدادها من كل نحو ومن كل وجه ، لا تشقها إلا أشعة ضيئلة متفانية تنبعث من أضواء الكهرباء التي كانت عالقة على السقوف والجدران . وها هم قد جلسوا منتظرين ، وهم في مجلسهم يتكلّفون الجلد ، ويأبون على أنفسهم أن يفزعوا ويرتعدوا ، ثم لا يطول هذا الانتظار وإذا الباب يُطرق طرقا خفيفا ، ثم يفتح دون أن يأذن الجلاس

بالدخول ، وإذا القادم هو حيدر عيسى وأبو إسماعيل الصنهاجي ، وكلاهما يسعيان إلى مجلسهما سعيا ، ولم يكد أبو إسماعيل ينتهي إلى مجلسه حتى رأى ما يبهره ويأخذ لبّه ، قد رأى نعمان وثويبة في محضره ، ورأى بجانبهما هاشما الذي يشبه أباه تماما ، وخُيِّل إليه الخبر الكاذب عن موته . لكن صوت حيدر الذي بدأ يذيع في ذلك الجوّ الرهيب وبدأ يضطرب اضطرابا متصلا حلوا ، أقول هذا الصوت هو الذي ردّه إلى صوابه وانتزعه في عنف من عالم النوم إلى عالم اليقظة ، فأفاق من غيبوبة تفكيره ، وسمع حيدر يقول :

« أنا لا أقف هذا الموقف لأدافع عن نفسي ، ولا أقف هذا الموقف لأتلقى اتهاما ، وإنما أقف لأردّ كل شيء إلى رشاده ، وأعيد إليه فضلا من صوابه ، وإني لأعلم أن فيكم من يتّهم الشرطة بكثير من المكر والدهاء ، وفيكم كذلك من يتهمهم بالقذف أو التلفيق والتزوير ، ثم ترون في ذلك أننا نتجاوز حدودنا ونخرج عن أطوارنا ، وأرى ألا عيب لكم في ذلك ، لأن كثرة الناس من حولنا يرون فينا رأيكم هذا حين نخرج عما يحبّون ويألفون ، ولو أننا أطعناكم على تقليدكم ، وخرجنا كما تخرجون على القانون والواجب ، لأنكرتمونا

أيضا ، ولألحقتمونا بالعامة ، وصببتم علينا مثل ما تصبّون على المجرمين من المقت والازدراء . من هنا تعلمون أن رعاية المصلحة العامة واجبة في جميع الحقوق والقوانين . وكانت هذه المصلحة تدفعنا أحيانا إلى الكيد والمكر ببعض أصدقائنا الذين لا يرعون في الأمر إلا مصلحة أنفسهم ، ولا يحبّون في القضاء إلا ما يوافق هواهم ، ولست أنكر أني قد فكرت بأبي إسماعيل وعرضته لهذا الخطر المنكر ، وللرجل أهله وأصدقاؤه في هذا البلد ، ومع ذلك فارقهم إلى السجن محزونا ومخذولا ، وهو بعد هذا كلّه صديق لي ، حبيب إليّ ، أؤثر له العافية ، وأضنّ به على المكروه ، وأتمنى له حياة متصلة مملوءة بحركاته هذه المضطربة المناقضة التي ترضى وتسخط وتسرّ وتسوء . وفوق هذا ما كنت أفكّر أني سأمكر به يوما وأكيد له على هذا النحو ، ولكنّي لم أرد به إلا خيرا . لأن أبا إسماعيل لو خلينا بينه وبين نعمان بن موسى في تلك الأيام ـ أيام المحنة ـ لما يكون حفيده هاشم محاميا في هذا اليوم ، لأن نعمان هو الذي ربّاه وهذّبه ومهّد له الطريق إلى ما هو فيه اليوم من خير كثير .

ولست في حاجة إلى أن أتمّ لكم بقية ما كان بيني وبين

أبي إسماعيل من حديث ، وما أظـنّ أن ذلـك يعنـيكم وإنمـا يعنيه هو ، وحسبكم أن تعلموا أن الدولة قـد جهّـزت الأوراق للإفراج عنه بعد ثلاثة أشهر لمناسبة عهد الاستقلال!

هنالك صاح جميع الحاضرين صيحة فيها أمن للقلوب ، ولذة للنفوس ، أما أبو إسماعيل فلم يقل شيئا ، وإنما قام من مجلسه وهرول إلى لقاء حفيده هاشم المحامي ، وضمّه إلى صدره ، كأنه عثر على كنز مفقود!

(١٨)

سأستجيب لهذه الدعوة ما في ذلك شكّ ، قال الحارث ذلك لزوجه نويرة ، وكان يتعجب فيما بينه وبين نفسه لهذه الدعوة التي جاءت من بلدة الميمة دون أن يعلم الذين أرسلوها إليهما أنهما قادمان إلى بلاد التكرور .

كانت أمور السياسة هي التي أخرجت الحارث من بلاده ، ما في ذلك شك! وكانت الأمور السياسية نفسها هي التي تعيده إليها من جديد . لكن الحارث الذي عرفه أهل الميمة قبل مغادرته للبلاد يختلف كل الاختلاف عن الحارث الذي يعود إليهم في هذه الأيام ، ولقد أصبح الحارث كهلا . حنكته تجارب الحياة ، وتغيرت في أمره أشياء كثيرة ، وكان يرى في نفسه أنه لا يستطيع أن يجاري الظروف التي كانت عليها بلاده لأن الأمور فيها تجري على النحو الذي تركها عليه ، لم يتغيّر منها شيء ، ولم يكن للمنافع فيها والآراب وجه جديد ، وكان

لا يريد أن يشقّ على نفسه ، ولا يكلّفها ما لا يريد أن يتكلف من الجهد بعد أن انقطعت أسبابها ، ومن الكفاح بعد أن عصفت به الريح ، وكل آماله الآن واقفة على ابنه همام ، ولقد سماه بهذا الاسم كما ترى ليعيد مجد أبيه وآماله وطموحاته ، ولكن هماما لا يريد أن يكون سياسيا ، وإنما يسلك في حياته مسلك العباد والنسّاك ؛ حيث كان يتخفف من التجلد والتجمل والاحتشام ، وكان يطلق اللحية والشارب حريتهما فتسبلان على وجهه في توفر ونماء ، وكان سرواله لا يبلغ كعبيه ، وكان يمشي على الطريق وفي رأسه طاقية وفي فمه سواك يظهر به أسنانه في كل وقت للصلاة ، وفي كل وقت لا صلاة فيه ، وها هو ذا قادم يسلّم على والديه ويسألهما عن سبب وقوفهما في فناء الدار ، فأجاب أبوه الحارث بقوله : هذه هي الرسالة التي بعثها إليّ صديقي حيدر من بلدنا .

قال همام : وما الذي تضمنته من خبر سار؟ قال الحارث : لم يكن فيها سوى ما أرغبك فيه منذ سنين ، كان صديقي يدعوني إلى مشاركة المواطنين في عيد الاستقلال الذي سيقام عن قريب ، وكان يدعوك خاصة في مشاركة ابن خالتك هاشم المحامي في حركاته السياسية لأنه أراد أن يكون حاكما

من حكام البلاد بعد مغادرة أهل يلملم ، وقد يكون له التوفيق في الانتخاب المقبل في هذا العام .

قال همّام : دع عنك هذا يا أبي وإنك تلزمني أعواما بما أطيق وما لا أطيق ، قالت نويرة : أرجوك يا ولدي لا تدع السياسة ، فليس للرجل المثقف عن ذلك غنى! انظر إلى ابن أختي ثويبة فإنه قد عاد إلى أرض الوطن العزيز ، وبدأ يلمّ بالسياسة إلماما شديدا ليعرف ما يحدث في بلادنا وليساهم فيها بمقدار . قال همّام : ذلك هو مداره وميدانه أما أنا فليس لي مجال آخر إلا في دائرة الدين . قال الحارث : أما تعلم يا ولدي أنك لا تكاد تستقرّ في أرض الوطن حتى يسعى إليك الساعون وتسعى أنت إلى الذين سعوا إليك ويأخذك سخف الحياة اليومية من جميع أقطارك ، وإذا أنت لم تجد الوقت هناك للاستفادة والإفادة بما حملت إليهم من كنوز العلم ، فسرعان ما تذوب شخصيتك في المجتمع كما يذوب الملح في الماء . قال همّام : فاعلما يا والداي أن كل ما تصفانه وترجوانه ليس لمن أراد أن يحيى حياة ممتازة أخلص فيها للدين وللمعرفة الدينية الحقّة ، قال الحارث : يا ولدي لا تكن كمن نعم أثناء النوم بحلم لذيذ ثم انقطع عليه حلمه

فجأة فأفاق وفي نفسه على هذا الحلم حسراتٌ وحسراتٌ ، أنا أرى من الخير أن نفكّر فيما أشرنا إليك من رأى واعمل الحيلة ، وابذل الجهد ، وتكلّف فنونا من المغامرات حتى تظفر بالسعادة التي تغمر أمثالك من الشباب في الحياة الاجتماعية غمرا ، سمع همّام هذا كلّه من أبيه ، ولم يقل شيئا بعد ما قاله آنفا ، وأراد أن ينطلق مدبرا ، فدعاه أبوه ، فقال : اعلم يا ولدي أن عودتنا إلى البلاد قد تكون غدا في الصباح أو بعد غد في المساء .

(١٩)

شاع خبر قدوم الحارث في البلد كلّه! وجمع القوم في داره جمعا لا نظير له ، وكانت السمعة الطيبة التي يتمتع بها من قبل تدعوهم إلى التجمع والتطلع والاستشراف . ثم إلى تبادل الرأي ، وتجاذب الأحاديث وإرسال النكت كأنهم في ملعب من ملاعب التمثيل ، وقد أصبح من طبيعة التكروريين والميميّين منهم خاصة إذا عادوا من الرحلة طويلة أو قصيرة ، والتقوا مع الرفقاء والأصدقاء وفرغوا من حديث السفر أن يستأنفوا الحديث على ما شهدوا في الغربة وأن يطيلوا الحديث عن الغرباء والأجانب ، وأن ينقدوهم نقدا مفصلا لا آخر له ، يتناول حياتهم ومعاشهم وأشكالهم وأزياءهم إلى آخر هذه الأحاديث التي تنقضي .

وكان الحارث في هذا كلّه قد رتب أمره على أن يفرغ لنفسه ولبعض أصحابه ، وقد قدر أنه سيجلس معهم ويلتقيهم

في أيام الآحاد كما تعوّد ذلك قبل سفره ، ولكنه مع ذلك يتكلّف الحيلة حتى على أهله وأقاربه فيظهر لهم شيئا من يسر ، ويغريهم بأنه يستمتع بحريته كاملة ، ويلقي إليهم تحيّة فيها شيء من الاستخفاء واللباقة ، ثم يخلو إلى نفسه ، وهنالك يستبين له كل شيء حيث تبقى في النفس من هذه وتلك أحاديث تثير فيها كثيرا من حزن وقليلا من سرور .

هذا هو ابنه همّام قد بدا في سلوكه أنه ضاق بالأهل والأقارب ، وضاق بهذه الحياة الفارغة التي لا تنسجم ببيئته الأولى والتي لم تكن في نظره إلا عبث ولهو ومجون ، ولم يلبث أن هجر الفتى أسرته وبيئته ، واندفع في تحمّسه للدين وأصبح إماما في جماعة التبليغ ، وكان فدائيا في إمامته مستعدًّا لتنفيذ ما تصدر إليه الجماعة من أمر ، لا يجادل في ذلك ولا يفكّر في الجدال لأنه قد وهب حريته وحياته للدين والجماعة ، ولا ينتظر على ذلك أجرا ، ولا يريد جزاء . وكانت الجماعة تأمره بالسياحة على قدميه حينا ، وبالدعوة في أماكن نائية أحيانا ، ثم يعود الفتى دون أن يوفق إلى ما يرضيه في دنياه ؛ إذ هو لا يستطيع أن يعود إلى بيئته

الأولى ، ولا يستطيع أن يصانع الظروف ويجري مع ما تقتضيه السياسة ، فاستيأس من كل شيء .

وذات يوم خرج الفتى من دار أبيه ولم يعد إلا بعد ثلاثة أسابيع ، ولما عاد إلى الدار أخذ يدمّر جميع ما امتلك من أجهزة إلكترونية ، ويمزّق جميع ما في الغرفة من صور وخرائط ورسوم ، ثم تناول شهادته العلمية فمزّقها كل ممزّق ، وأخذ يقول : كل من يقتني الصور في بيته فهو كافر! وكل من يقتني الأجهزة الإلكترونية في ربعه فهو كافر!

على هذا النحو كان همّام يتصرّف في دار أبيه وكأنه قد مسّه طيف من جنون ، وكان الحارث يلتمس له الشفاء عند الإخصائيين من علماء النفس ، لكن لم يلبث أن كان همّام قد خرج من الدار بلا وداع ، فأخذ أبوه يظنّ أنه سيعود كعادته مع الظهر أو مع المساء ، لكن همّاما لم يعد إلى دار أبيه حتى صباح يوم الاستقلال !

(٢٠)

ويوم الاستقلال خرج الناس إلى ملعب كبير اجتمع فيه الشعب كلّه رجالا ونساء ، شبّانا وأطفالا ، وقد أقبلوا على ما يهمّهم من نشاط ، وعلى ما يجلب أنظارهم من مناظر رائعة بديعة ، ولقد ملأت تلك المناظر بأغان دينية ووطنية ومحلّية ، تمتزج فيها الأصوات الحلوة : أصوات النساء والولدان بتلك الأصوات الغلاظ الشداد ، أصوات الرجال والشبان ، ثم تبعث من الأصوات تلك المعاني الساذجة البسيطة التي تقدس وتمجّد الوطن في غير تكلّف ولا إسراف .

وفي هذا المحفل العظيم كان كبار القوم ينتظرون ظهور الحارث بين جموع الناس ، ليلقي كلمة أو كلمتين نيابة عن أبناء الوطن الذين بذلوا كل ما في وسعهم من كفاح وجهد ليتمّ هذا الاستقلال ، لكن لله الأمور هو بالغه ، وقد غاب الحارث في ذلك اليوم غيابا تامّا ، وهو لم يحضر ولم يظهر

بين جموع الناس حتى كملت شعائر الاستقلال في مرح وسرور .

هنالك أخذ بعض الأصدقاء سيّارات ضخام ليتفقدوا حال صديقهم الحارث الذي قيل عنه إنه يعاني مرضا خفيفا منذ يومين ، ولم يكد يصلون إلى دار صديقهم حتى وجدوا أنفسهم في مشهد مؤلم عظيم! وقد مات الحارث في صباح يوم الاستقلال! (إنّا لله وإنّا إليه راجعون)!

١٩/٣/٢٠٠٩ م .

آدم يحيى عبد الرحمن الفلاني

كنو ـ نيجيريا